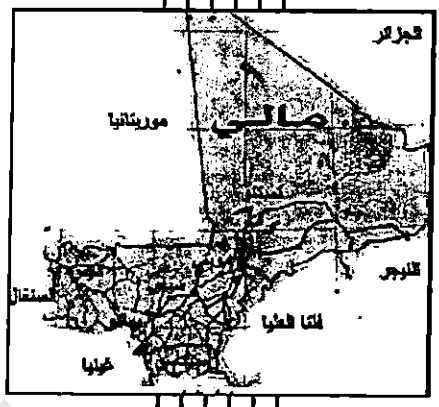

التنشئة الاجتماعية والمعتقدات في مالي

الفصل الثالث

المعتقدات الدينية عند البمبارا

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد :

كلمة دين Religion مشتقة من الكلمة اللاتينية Religere وهي تشير إلى الإيمان بوجود قوة عليا مسيطرة والدين بهذا المعني شيء لازم وضروري في حياة الإنسان ولا يستطيع أن يعيش بدونه فهو فطرة فطر عليها الإنسان[1] وهو(أي الدين) ظاهرة اجتماعية يقوم بدوره كنظام اجتماعي ينظم علاقة الإنسان بكائن أو كائنات أخرى أو قوى ميتافيزيقية ويحتوي الدين على نسق سلوكي وقانوني وأخلاقي ويحدد العلاقة بين الأفراد والجماعات وله وظائف كثيرة .

هذا وقد اعتبر دوركايم أن الدين يخلق الحياة الاجتماعية ، لأن المجتمع في رأيه ما هو إلا الأفراد المتفاهمون فيما بينهم على فكر معين ، سواء أكان ذلك عن المقدس sacred أو غير المقدس وعلى طريق ممارسة الطقوس والشعائر المناسبة لكل منهما باتباع نظام رتيب مستقر يقبله جميع أعضاء الجماعة .

ويمثل الدين أحد المستويات العليا في الثقافة ، والواقع أن طبيعته الرمزية في مستوى أسمي بكثير من المستوى التكنولوجي أو المستوى الاجتماعي ، وكل المعتقدات الدينية سواء البسيطة أو المركبة تمثل خاصية واحدة عامة ومشتركة ، ومع ذلك تتأثر المعتقدات الدينية بالبنية الاجتماعية ، وليس من السهل تعيين حدود دقيقة للدين أو المعتقدات كحقيقة بصفة عامة ، ولذا فمن الأفضل التركيز على المواقف والسلوك الذي يدفع إليه المعتقد ويعطيه خاصية مقدسة[2] .

وللدين في كل مجتمع إنساني ، وظائف اجتماعية رئيسية تهدف إلى حفظ تماسك وترابط أفراد المجتمع بالإضافة إلى الوظائف النفسية مثل الشعور بالراحة النفسية والقوة للاعتقاد في أن قوة خفية عظيمة تساعد الإنسان في حياته وبعد مماته ، لذلك لا يعيش مجتمع إنساني بدون دين ، ونلاحظ أن الأديان السماوية الإسلام والمسيحية

(1)Durkhaim،E.(1966) the division of labour in society، translated by G.Simpson،the free press New Yourk،London ،p.56.

(٢)عيد محمد السيد عيد « أثر المعتقدات الدينية وممارساتها في الحياة الاجتماعية لدى النيليين ، رسالة ماجستير ٢٠٠٤ ص ٦٢

واليهودية قد هبطت في مجتمعات متمدينة أما المجتمعات الأولى شبه البدائية فقد فرضت عليها عزلتها الاجتماعية والسكانية عدم التعرف على الأديان السماوية الكبرى إلا منذ عهد قريب ، لذلك ظل معظمها متمسكا بمجموعة من العقائد والطقوس المتوارثة من أجيال قديمة ، وقد اهتمت المجتمعات المتمدينة بواجبها الديني نحو المجتمعات البدائية فعملت على شرح الأديان السماوية في تلك المجتمعات مما أدى إلى اعتناق الكثير منها الإسلام والمسيحية[1] .

وقد فشلت الحملات التبشيرية التي أرسلتها الدول الغربية في المجتمعات البدائية في تعميق المفاهيم الدينية في عقول البدائيين ، لذلك عندما خرج الاستعمار الأوروبي من إفريقيا ارتدت الكثير من هذه المجتمعات إلى دياناتها التقليدية وتركت المسيحية .

أما الإسلام فأنه يقوم بنشر الدعوة بدون حملات تبشيرية مقصودة أو منظمة ، ويقوم بتلك المهمة مشايخ الدين الإسلامي في المجتمعات البدائية في إفريقيا وإندونيسيا بطريقة الإقناع وهؤلاء المشايخ يتلقون التقاليد الدينية في الأزهر ، يقوم هؤلاء المشايخ بشرح تعاليم الإسلام لأفراد ينتمون إلى المجتمعات البدائية ويقوم هؤلاء الأفراد بنشرها في قبائلهم ، وقد انتشر الدين الإسلامي بسرعة كبيرة في مناطق شاسعة في العشرين سنة الأخيرة . ويرجع ذلك لأسباب متعددة منها خروج الاستعمار الأوربي والجمعيات التبشيرية من معظم مناطق أفريقيا، ومنها انتشار وسائل المواصلات التي تربط المجتمع الإسلامي العظيم في شمال أفريقيا بالمجتمعات البدائية في وسط وجنوب أفريقيا [2] .

وتنتشر في إفريقيا كثير من العقائد التقليدية ، كما تنتشر بها مجموعة من العقائد الوافدة مثل الإسلام والمسيحية ، ومن العقائد البدائية تقديس ظواهر الطبيعة وأرواح الأجداد أو تقديس أرواح وهمية غامضة وكذلك تقديس الأبطال والرؤساء.

ولا يمكن الحديث عن الديانة التقليدية على أنها موضوع واحد أو دين واحد ، لأن ذلك سوف يقودنا إلى أخطار جسيمة ، لأنة لا يوجد شخص واحد يستطيع تمثيل جميع ميزات دينه ليصبح نموذجا مثاليا في كل الأماكن في أفريقيا ، فهناك من يسكنون بجانب

(١)فاروق العادلي وعاطف أمين وصفي،مبادئ الأنثروبولوجيا ومدخل اجتماعي ثقافي سنة ٢٠٠٣ ص ١٨٨.
(٢)المرجع السابق ص ١٩٨.

البحر وهناك من يعيشون بالغابة وهناك من يسكنون بالصحراء والسافانا وبالتالي تختلف السلوكيات والأخلاق وكذلك العلاقات الدينية المتوارثة طبقا للأماكن[١] .

ويري البعض أن الديانة التقليدية يجب الكلام عنها بصيغة الماضي ، حيث يعتقدون أنها قد انتهت تتلاشا إلا أنها لا تزال تمارس بواسطة أفراد موجودين إلى الآن بالتبعية لآبائهم وأجدادهم وتمثل لهم رابطة بين الماضي والحاضر وبين الحاضر والأبدي .

وتنتشر الديانة الإفريقية حتى الآن في أجزاء عديدة من القارة الأفريقية حتى في بعض المناطق التي وصلتها الديانة المسيحية أو الإسلامية مثل مناطق البانتو وسط وجنوب القارة الأفريقية ، وتشكل جزءًا من الثقافة الإفريقية التقليدية ، وقد أساء الأوروبيون الأوائل للديانات التقليدية في أفريقيا ، وذلك لأنهم أخفقوا في فهم الثقافة التقليدية في القارة الإفريقية[٢] .

ونظر البعض للإفريقيين على أنهم متوحشون وليس لديهم دين ، وكما أساء البعض الآخر وصف المعتقدات الدينية التقليدية واعتبرها وثنية أو عبادة أصنام وتعاويذ من صنع الإنسان نفسه.

ولم تتبلور حقيقة وطبيعة الديانة التقليدية الإفريقية بالنسبة للعالم الخارجي إلا بعد أن انفتحت القارة على العالم الخارجي باستقلال دولها والاهتمام العالمي بالتعرف عليها مع قيام الأفارقة أنفسهم بالكتابة عن أوضاع القارة الاجتماعية ، فلا يستطيع فهم الأفريقي إلا الأفريقي خاصة في مجال الديانات والمعتقدات التقليدية التي تتضمن الكثير من الرموز التي لا يفهمها إلا كل من عاشها أو تعايش معها[٣] .

وقد اختلفت التسميات الخاصة بالديانات الإفريقية ، فقد وصفها البعض بأنها الوثنية payanism بينما عرفها البعض الآخر بأنها fetishism وتعني الشئ الذي

(١)) Hampate ، Amadou Ba (1972) Aspects of African civilization (person ، culture ، religion) Paris ، translated by Susan B. Hunt . (http://pender.ee.upenn.edu/rabii/toes/BaAspects htmI)

(2)Idowu ، E. Bolaji (1977) . African traditional religion . A definition ، London ، PP. 104 – 116

(٣)حورية توفيق مجاهد ، الإسلام في إفريقيا ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، صـ٤٦ .

يقوم الإنسان بصناعته.

وقد استخدم الفرنسيون تعبير JuJu وهو مستمد من اسم لعبة ، ويعتبر الإفريقيون هذه التسمية استخفافا بمعتقداتهم التقليدية .

وقد وصفت الديانة التقليدية في إفريقية بالهمجية أو الكفر Heathemism أو الروحانية Animism أو أنها عبادة الأسلاف Ancestor worship وكذلك أطلق عليها في بعض الدراسات بالديانة القبلية Tribal Religion أو الديانة البدائية Primitive Religion .

ويدين بالديانة التقليدية في إفريقية حوالي ٢٠٪ من مجموع سكان أفريقيا ، هذه النسبة في تناقص مستمر نتيجة انتشار المسيحية والإسلام . ألا أنة في بنين وبتسوانا وبوركينا فاسو وإفريقيا الوسطي وغينيا ، وساحل العاج وبعض دول الجنوب الإفريقي نجد أن الديانة التقليدية تنتشر بشكل كبير ، حيث تشير الإحصائيات إلى أنها تشكل ما يقرب من ٥٠٪ من السكان وتختلف النسب الخاصة بالديانة الإفريقية التقليدية في أجزاء أخرى من القارة الإفريقية [١].

[راجع مجلة comboni التبشيرية – إفريقيا جديدة – العدد الخاص – يناير ٢٠٠٠] [٢]

الخصائص المميزة لممارسة الديانة التقليدية :

تلتقي هذه الديانات كلها عند أساس واحد هو عمق الإحساس وللروابط الوثيقة التي تربط المجتمع البدائي بالبيئة الطبيعية التي يعيش فيها المجتمعات التقليدية لم تعرف الفصل بين الأمور الدينية والزمنية أو الدنيوية وهي هنا متفق مع أحد أسس الدولة في الإسلام الذي يقوم علي عدم الفصل بين الأمور الدينية والزمنية وهو من العوامل التي ساعدت علي تقبل الإفريقيين للإسلام ، هذا المبدأ بالرغم من اتفاقه مع الإسلام إلا أنه لا يوجد في المسيحية فهي تختلف هنا عن المسيحية التي تقوم علي مبدأ

(١)المرجع سابق .

(2)[Cf.Comboni Missionary Magazine ، NewAfrican – leadershiop – speacial Issue of January 2000]

ازدواج السلطتين حيث أن الديانة المسيحية جاءت كديانة روحية خالصة تركز علي الأمور الدينية فقط انطلاقا من قول السيد المسيح «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[1].

* ارتباط المجتمع وأفراده بالبيئة الطبيعية التي يعيشون فيها سواء كان مجتمع صيادين أو ملاك قطاعان أو زراع فهم يعيشون في كنف العناصر الطبيعية وعلي قطاعها حيث لا يستطيع الإنسان أن يتميز علي الأشياء ولا تتميز الأشياء عن الآدميين بل هم يعتبرون أنفسهم صورة من صور الكون الكلي ويشكلون حياتهم وفقا لما يتصورونه عن هذا الكون ولا يري المجتمع الفعلي في الحيوان والنبات ولا ي الجماد إلا مخلوقات لا يختلف عنها ولا تختلف هي عنه ولا يستطيع السيطرة عليها فأضفي عليها كل صفاته وأحاسيسه ورغباته الإنسانية وصور له خيالية بسبب ذلك الإحساس أن الإنسان بالمثل حيا أو ميتا له قوة يستطيع أن يتخذ شكل حيوان أو نبات وأن الجماعة الإنسانية حليفة وتسبق لجماعة الحيوان وبلغ تصوره بهذه الصلة أن يستأذن الصياد فريسته كي يقبلها أو يقدم قرابين لا يسترضيها أو أن يقدم ضحية لقوسه أو بندقيته حتى لا تخطئ في الهدف[2].

* أهم ما يميز الديانة الإفريقية أنها تؤدي بشكل جماعي سواء في تقبل المعتقدات في مجموعها أو في ممارسة طقوسها واحتفالاتها كما أن الديانات الإفريقية جزء أساسي من طريقة حياة كل شعب في إفريقيا وتأثيرها يمتد لكافة أوجه الحياة وأن دخول أي فرد أو جماعة في دين آخر أو خرج علي جماعة فهل يظل متماسكا ببعض الأوجه المتوارثة أي هناك عدم هجر كلي للثقافة[3].

* حيث لا تعارض بين الدين الذي انتمي إليه وديانته الأصلية حيث يحتفظ بالكثير من خلفيته الدينية الثقافية أما إذا حدث تعارض فيظل الفرد في تجاذب بين جذوره وانتماؤه الأصلي وبين دينه الجديد فيلجأ إلى التوليف كوسيلة لتحقيق التوازن أو هجر الدين الجديد واختيار دين آخر أكثر مرونة في تقبل الممارسات الخاصة بشعب أو جماعة .

* وكثيرا ما ينقل الأفراد بعض أبعاد معتقداتهم التقليدية للدين الجديد وبما أن

(١)حورية توفيق مجاهد ، الإسلام في إفريقيا ، صـ ٧٢ .

(٢)هوبير ويشان ، الديانات في إفريقيا السوداء ، صـ ١٠٣ ، مرجع سابق .

(3)Mbitr، J.s. Introduction to African Religion . P.13 مرجع سابق

النشاط يمارس تقليديا علي أساس جماعي لا فردي معني ذلك دخول الأسرة بل والقرية بأكملها في الدين الجديد بدخول شخص فيه وبالتالي فكثيرا ما تدخل القبيلة بأكملها في الإسلام خاصة علي خلاف المسيحية لأنها تعمل علي تنصير الفرد وتعتبر قلية منفردا فهي تصل علي أساس فردي اجتماعي ويعتقد الباحث أن هذا من أسباب انتشار الإسلام وخاصة في مجتمع الدراسة [١].

* من الملاحظ أن الأفارقة عادة ينجذبون إلى كل ما هو جماعي الجماعة هي الروح المناضلة في طبيعة القبيلة الأفريقية والاجتماعات والأعياد والاحتفالات هي مظهر من مظاهر حبهم وشغفهم للمجتمع والجماعات فهم يفكرون تفكير اجتماعيا إذا دعوا ألهتهم دعوها جمعا وإذا ابتهجوا كان ابتهاجهم وطربهم جماعيا في وحدة تربطهم بعضهم ببعض حاضرهم وغائبهم وحيهم وميتهم وهذه الوحدة المليئة بالحيوية العارمة تبدو في انفعالاتهم الصارخة وسط مظاهر عظيمة من الاحتفالات والابتهاج الجماعي في مكان واحد مزادهم بألوان الطعام يشترك فيه الجميع سواسية[٢].

وقد حضر الباحث إحدى هذه الاحتفالات الخاصة بمالي والبمبارا احتفالهم في القاهرة بمقر سفارة مالي كان الاحتفال بعيد الأضحى المبارك وأقيم الاحتفال ثالث أيام العيد وجمع جميع الطلبة الماليين ومنهم من بمبارا وقري أخر يدرسون في القاهرة في مدينة البعوث الإسلامية في كليات جامعة الأزهر وغيرها وضم أيضا جميع العاملين والموظفين في السفارة ماليين ومصريين والسفير وكان بسماع موسيقي صاخبة وتجمعهم بعضهم مع بعض للعب الورق (الكوتشينة) وآخرين بالحديث وقاموا بالرقص الجماعي وبعد ذلك تقديم الطعام وجلسوا جميعا يأكلون في وقت واحد وبطريقة واحدة وكان الطعام المتعارف عليه كما في مصر في عيد الأضحى تغلب عليه الأرز والخبز واللحم (الفته) ولكن يختلف عندهم لا يوجد خبز فهو أرز ولحم فقط وهذا هو الطعام الشهير والأساسي عند البمبارا ومالي كلها[٣] .

---

(١)httpill WWW. Shikanda . netl african – Religion / islam paper 3011 – 2008

(٢)هوبير ديشان . مرجع سابق . صـ١٠٧ .

(٣)دراسة ميدانية .

انجذاب الأفارقة إلى الجماعات والممارسات الجماعية هذا أدي إلى انجذابهم إلى الإسلام وإلي الممارسات والجماعات الصوفية التي تكثر من حلقات الذكر والإنشاد وهذا يشد انتباه الإفريقي كشكل جماعي منظم لممارسة بعض الشعائر الدينية .

يلاحظ أن الإفريقيين مغرمون بشدة بالموسيقي والرقص والغناء وهي من الظواهر الموجودة في كل جماعة في إفريقيا الموسيقي والاحتفالات موجودة في كافة أنشطة الحياة ، الزراعة ، الحقول ، الصيد ، الاحتفالات الشعبية ومن إفريقيا انتشرت الموسيقي الإفريقية للقارات الأخرى ، يهم للموسيقي لا يمنعهم عن استخدامهم والرقص في الطقوس الدينية وكثيرا ما يعبر الإفريقيان عن انطباعاتهم الدينية بالرقص وهذا ما يعتبره المبشرون المسيحيون من سمات الوثنية وتجعلون هجرة متطلبا سابقا للدخول في المسيحية .

كثير من الموسيقي الإفريقية والرقص يتبادلان أفكارا دينية وممارسات دينية والاحتفالات والطقوس الدينية تصاحب دائما بالموسيقي والغناء وأحيانا بالرقص[1] ، وفي الفن الإفريقي النحت والأعمال الخشبية حيث الأقنعة لها دور في ممارسات الحياة بما فيها الديانة وتعرضت أيضا لعدم الفهم خاصة من المبشرين .

أهم ما يميز الديانة الإفريقية هم الأجداد أو الأسلاف التي يتم معاملتها باحترام وخوف فأرواح الأجداد الذين فروا من هذا العالم إلى عالم آخر فالأفارقة يعتقدون أنهم أقرب إلى الرب منذ وفاتهم ولهذا فإن من يغادر هذا العالم الحي يحتلون مكانة مرموقة في مكان هذا الدين وفي مقابل ذلك فإن الأفارقة يخدمون أجدادهم هذا يعتبر عبادة كما يتخيلها العرب ولكن من الممكن النظر إليها علي أنها نوع من الاحترام والضيافة .

في عالم الأفارقة لا يوجه موت بمعني الانفصال الجذري من العائلة أو المجتمع القبلي ولكنهم يعتقدون أن الحياة أبدية وحركتها ليست حظية ولكن دائرية ويعتقدون أن روح الأجداد تعيش نفس المدة التي عاشتها علي الحياة وهم أحياء في فترة الموت .

الأجداد الموتى يستيقظوا بإحساساتهم وشعبهم التي يجب أن يتبع كما لو كانوا

(١)مرجع سابق Hampata Ba . P. 16

أحياء فهم يشعرون بالجوع والعطش فهم كانوا جوعا أو سعداء علي أساس سلوكيات أطفالهم الذين هم علي قيد الحياة الميت الحي يكون قاسيا إذا أهمل ولكن يكون حسنا إذا عومل باحترام ، لذلك فالآباء والأبناء يضعون طعام لأجدادهم الموتى [١] .

بمفهوم الدين التقليدي الأجداد الموتى يلعبون دور الوسيط بين أسرهم والآلهة فهم يعتبرون أوصيا علي شئون وتقاليد وأخلاقيات وأنشطة أسرهم وينظر إليهم علي أنهم يترأسون روحيا علي رخاء هذه الأسرة .

وفي عالم الكون الإفريقي بالإضافة إلى الأجداد الموتى توجد أرواح أخرى أو قوى روحية تخدم أو تدمر البشر [٢]، في هذه القوى يوجد العرافة والسحرة والمشعوذين العراف يستخدم علي نطاق واسع في مفهوم الدين الإفريقي فيدل علي الضرر فأي ضرر يحدث يرجع سببه إلى العراف .

ومن أهم ركائز المعتقدات الدينية الإفريقية السحر وإن كان أسيء فهمه إلا أنه لا يخرج عن كونه محاولة للسيطرة علي القوى الطبيعية وما وراء الطبيعة وإبعاد الضرر عن النفس أو التأثير في مجريات الأحداث علي الغير بالضرر أو النفع .

وجدير بالذكر أن الإسلام اعترف بوجود السحر وورد في القرآن الكريم لفظ السحر ومشتقاتها بعدد اثنتان وستون مرة في ٥٢ آية إلا أن الإسلام كان حازما وواضحا ضد السحر حيث أكد أنه من أعمال الشيطان قوله تعالي « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر [٣] » ولا يفلح القائمون به « وإنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتي » [٤] .

وكثيرا ما يلجأ الإفريقي إلى المشايخ لكتابة الأحجبة وغيرها للسيطرة علي القوى الغيبية حسب المفاهيم التقليدية المتوازنة ونجده أيضا بعد الإسلام يلجأ إلى العلماء

(1)Paris ، Peter J. (1995) The spirit uality of African peoples – Minneapdis Minnesota : fortress P. 52

(2)Opoku ، Kofi Asare (1978) west African traditional religion . Acca Ghana ، Feb، International private limited P.10 .

(٣)سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٤)سورة طه آية ٦٩ .

والمشايخ المسلمين للاستعانة بالقوى الروحية علي السحر والحسد[1].

بصفة عامة المجتمعات التقليدية في إفريقيا تقوم أساسا علي التسامح ولا تعرف التعصب الديني ولا يعرفون ما يسمي بحرب الأديان فإن دخول أي فرد في دين سماوي لا يعني استبعاده عن الجماعة أو طرده من القبيلة أو الأسرة حيث قد يضم المسكن الواحد من ينتمي للدين التقليدي والإسلام أو المسيحية دون حساسية كبيرة .

أخيرا نجد أن جوهر الدين الإفريقي من حيث الإيمان بوجود خالق أعظم بصفاته وخصائصه المعتقد فيها بتقارب مع جوهر الإسلام دين الفطرة فالوحدانية الصريحة أو الضمنية في مركز الديانة الإفريقية مما يجعل مفهوم الوحدانية المطلقة في الإسلام أقرب إلى الفهم والعقل ومن تقبل الإفريقي للدين الأسلاف كان أسرع وأسهل من أي ديانة سماوية أخرى وهذا ما سوف نتعرض له في جزء خاص من الدراسة .

(١)حورية توفيق مجاهد صـ ٧٥ مرجع سابق .

هيكل الديانة التقليدية الإفريقية

الإله الأعظم (خالق الكون)

↓

مقدسات (القوى الروحية)

آلهة طبيعة | قوى سحرية | أرواح الأجداد

(أرواح ظواهر طبيعية)

في القمة (السماء)

(وترمز للخالق الأعظم الذي ينساب منه كل شئ ويعود إليه كل شئ)

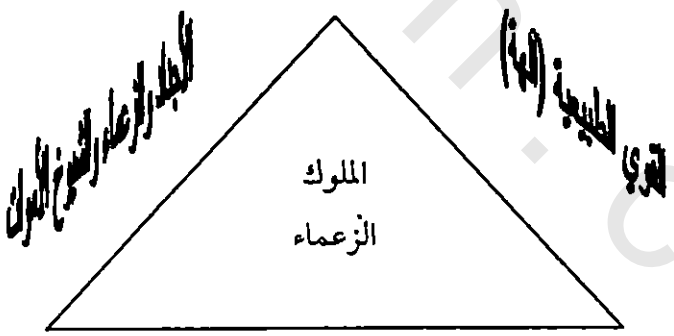

القاعدة (الأرض)

(وكثيرا ما يرمز لها بأنها إلهة ، وأهميتها للفرد أنها منتجة لغذائه ومستقر لجسده بعد الموت).

قصة الإسلام في غرب إفريقيا عند مالي علي وجه الخصوص :

من الخصائص الفريدة لغرب إفريقيا التي عرفت بالسودان الغربي قيام الإمبراطوريات والممالك التي تميزت بتقدم نظمها الاجتماعية والسياسية وذلك من القرن الثامن الميلادي وحتى الاستعمار الأوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد تميز تلك الإمبراطوريات والممالك بالسلطة المركزية والتنظيم الإداري الهرمي بالإضافة إلى ظهور الدور السياسي للإسلام في حياة هذه الإمبراطوريات التي أسهمت بدورها في نشر الإسلام وساعدت علي جعل منطقة غرب إفريقيا تمثل مركز الثقل بالنسبة للإسلام في القارة جنوب الصحراء .

فقد دخل الإسلام غرب إفريقيا بقيادة عقبة بن نافع وتعتبر غانا من أقدم الإمبراطوريات في غرب القارة وحاولت الجيوش الإسلامية دخولها ولكن ذلك لم يتم ومع ذلك انتشر الإسلام في قبائل السونينك وقبائل الهوسا والبورتو والدوغامبا وضعفت إمبراطورية غانا فقامت قوات المرابطين يضمها إليهم ووصلت الجابون وتعتبر أول جماعة مغربية تنشئ دولة أسسها عبد الله بن ياسين وعرفوا بالملثمين وفتحوا بلادا واسعة جنوب فانتشر الإسلام حتى حوض النيجر ومن أهم شخصياتهم عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولي مؤسسهاو يحيي بن عمر تلميذه وأبو بكر بن عمر ويوسف بن ناشقين[1] .

نجد أن إمبراطورية غانا كانت فاتحة لعهد الدولة متسعة النطاق في غرب إفريقيا بدأت في القرون الأولي بعد الميلاد وانتهت في القرن الثالث عشر وخلفتها إمبراطورية مالي وبلغت أوجها في القرن الرابع عشر وكانت أكثر الإمبراطوريات ثراء وازدهار ، فكانت مالي هي أعظم ممالك السودان المسلمين قامت في القرن الثالث عشر الميلادي في جنوب المغرب متصلة غربا بالمحيط الأطلسي وشرقا ببلاد البرنو وشمالا بالصحراء الكبرى وجنوبا الوثنيين ، وقد اشتملت علي خمسة أقاليم كل منها مملكة مستقلة ثم أصبحت كلها تحت ملك صاحب مالي ، ومالي هي أصل مملكته وهذه الأقاليم هي :

١- مالي واتخذت الإمبراطورية هذا الاسم وقاعدتها بنبي .

(1)http://www.Islam religion.com / articles / 304 (22 – 12 – 2008)

٢- صوصو إلى الغرب من إقليم مالي .

٣- بلاد غانة غرب إقليم صوصو وتجاور المحيط .

٤- بلاد كوكو شرق إقليم مالي .

٥- بلاد التكرور شرق إقليم كوكو وقاعدته مدينة تكرور .

وقد قامت مالي في قلب السودان وفي حوض نهر النيجر وأصبحت غانة بعد ضعفها أحد أقاليم إمبراطورية مالي الإسلامية أما جمهورية مالي الحديثة فهي جزء من دولة مالي الإسلامية وقد استقلت عام ١٩٦٠ وكانت تعرف قبل استقلالها باسم السودان الفرنسي وأخذت مالي بعد الاستقلال إحياء المجد القديم[١] تعتبر دولة مالي الحالية من الورثة أو إن جاز القول هي الوارثة الكبرى للإمبراطوريات والممالك المتعاقبة التي شهدتها منطقة غرب إفريقيا ما بين الصحراء الكبرى شمالا حتى الغابات الاستوائية جنوبا ومن شرق نهر النيجر إلى المحيط الأطلسي غربا ، ذلك أن مالي بحدودها الحالية التي رسمها الاستعمار احتلت دائما مكانا مركزيا في تلك الإمبراطوريات والممالك بدليل أن كثيرا من المدن الحالية في مالي كانت مركز إشعاع في هذه المملكة مثل مدن تمبكتو وجنى JENE وغاو GAO وكانغابا KANGABA وقد عرف أهل هذه المنطقة الإسلام منذ وقت مبكر القرن العاشر والحادي عشر .

منذ تلك الفترة بدأ اهتمام السلاطين بالإسلام ليس فقط كدين عبادة وإنما أيضا كحضارة يقتبسون من منجزاتها لإثراء دولهم منها إيفاد البعثات إلى البلاد الإسلامية للتعليم خاصة فاس / مصر في الأزهر وجلب العلماء من هذه البلاد لقيادة حركة التعليم والتنوير في بلادهم وقد شهدت هذه الحركة ازدهارا خاصة في عهد ملك مالي الشهير كنكن موسى KANKN un Moussa المعروف بمنسي موسى MaNsa Mousa الذي قام بأداء الحج علي رأس موكب كبير عام ١٣٢٤ م ثم عهد ملك سونغاي في اسكي محمد الكبير ١٤٩٧ م وقد كان الإسلام في تلك الأثناء يبدي إثارة في الثقافة

(١)ك. مادهو بانيكار ، الوثنية والإسلام « تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا » ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٨

الشعبية. كانت تتميز هذه الإمبراطوريات والمملكات في غرب إفريقيا بالسلطة المركزية التي قامت علي وجود رئيس واحد هو رئيس الدولة وقيامه بتفويض السلطة الممثلة في المناطق والوحدات الإقليمية المختلفة وهؤلاء الممثلون المحليون لم تجمعهم معه رابطة الدم وكان التركيز علي احتلال رؤساء تلك الدول لبعض التفوق والقوى الغيبية غير الطبيعية واستمرار بعض الأفكار الأسطورية عن أصل الحكام .

وأهم أبعاد تلك الأفكار هو محاولة ربط أصلهم بأصل إسلامي مقدس وتعبيرا عن ذلك ما نجده في إمبراطورية مالي حيث ساد الاعتقاد بأن أجداد العائلة الملكية وهي عائلة كينيا جاءوا من الجزيرة العربية حيث ظهر الإسلام ، وإن سندياتا كينا مؤسس الإمبراطورية كانت له قوة فوق الطبيعة Supra Natural بالإضافة إلى وضوح النفوذ السياسي للإسلام الذي كان واضحا في أول إمبراطورية وهي إمبراطورية غانا فعلي الرغم من أن قبل ١٠٧٦م لم يكن إمبراطور غانا مسلما إلا أنه اختار معظم وزرائه من المسلمين وكان احتلال إمبراطورية غانا بواسطة الرابطين ١٠٧٦م هو العلامة الأساسية علي طريق بداية نشر الإسلام في منطقة السودان الغربي وعلي الرغم من أن هذا الغزو لم يستمر طويلا إلا أنه نتج عنه دخول حكام غانا في الإسلام[١] .

انتقل الاتجاه نحو الإسلام بين الفئة الحاكمة للإمبراطوريات ففي إمبراطورية مالي كانت الطبقة الحاكمة والمحيطون بها مسلمين وقام الزعماء الماليون بعدة رحلات حج لمكة والمعتقد أن أول مسلم كما ذكرنا سابقا برمندانا كينا وأنه بعد إسلامه ذهب إلى الحج ١٠٥٠م .

وقد قام منسي موسى بجهود واضحة كبيرة في نشر الإسلام خاصة بعد رحلته الشهيرة للحج والجدير بالذكر أن هذه الرحلة وجهت الأنظار لثراء تلك المملكة وذلك لعظمة موكبه الملكي وكثرة ما حمل معه من ذهب للتصدق والظهور بمظهر لائق بعظمة مملكته ويلاحظ أن أول خريطة لإفريقيا في أوربا رسمت في البرتغال موضحة بقلب

(١)حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٦ ، ٢١٥ – ٢١٦ .

غرب إفريقيا صورة مانسا موسى متربعا علي عرشها فوق تل ق الذهب[1].

فقد كان الحج بجانب التجارة من أهم العوامل التي ساعدت إفريقيا الغربية في القرن التاسع عشر علي إقامة علاقات وثيقة مع المناطق المجاورة ، فقد كان الحجاج المتجهون إلى مكة يقيمون علاقات بأماكنهم في المدن المختلفة ولم تكن الدول الإفريقية تتدخل في شئون المسافرين المعتادين سواء كانوا حجاجا أم تجارا وفي معظم المدن كان هناك مواطنون أو زائرون يكثرون من السفر وكان يوجد بالمراكز التجارية العظيمة مثل كانم وتمبكنوا سكان لديهم معرفة كاملة بالبلاد الإسلامية وكان الاتصال بالشمال ذا جانب واحد لم يكن يزور شمال إفريقيا إلا أقل القليل من السودان حتى من الهوسا الموجودين في كل زمان ومكان ولكن الأراضي الغربية من الشرق الأدنى والقاهرة وغرب بلاد السودان وفي مقدمتها الأماكن الإسلامية كانت مألوفة لديهم كما أنهم لم يكونوا يجهلون جغرافية بلاد السودان بل كانت معروفة لديهم تماما[2].

وسائل انتشار الإسلام في غرب إفريقيا :

يتميز انتشار الإسلام عامة بأنه جاء نتيجة الدعوة والاقتناع وليس نتيجة القهر فوسائل انتشاره جميعها تأتي كنتاج للدعوة والاعتبارات الاجتماعية بالدرجة الأولي وقد تنوعت تلك الوسائل وتنوع الدعاة الذين انتموا أساسا للمناطق المحلية في إفريقيا ومن أهم رسل الدعوة التجار ورجال الطرق الصوفية والأئمة والوعاظ من دارسي الأزهر والجامعات في شمال إفريقيا والمراكز الثقافية في غربها وغيرها من مراكز الإشعاع الإسلامي في القارة وخارجها .

أولا : التجارة والدعوة الإسلامية

من أولي وسائل انتشار الإسلام وأهمها هي التجارة فكان التجار المسلمين من أهم رسل الدعوة الإسلامية في إفريقيا فقد وفد الكثيرون علي مر العصور علي أجزاء القارة المختلفة بهدف أساسي هو التجارة ، ولذلك كاد الإسلام أن يتركز في المراكز التجارية

(١)انظر بالتفصيل رحلة حج منسي موسى ، محمد عبد العال أحمد ، منسي موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ١٩٨٧

(٢)ك. ماوهو بانيكار ، الوثنية والإسلام ، مرجع سابق ، صـ ٥١٦ ، ٥١٧

الهامة وفي المدن الكبرى وبعض هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم فإذا ما استقر بهم المقام أنشئوا مدارس لتعليم القرآن أو أنشئوا مسجدا وقاموا في نفس الوقت بمزاولة النشاط التعليمي والاقتصادي ، وفي غرب إفريقيا علي وجه الخصوص كان لتجار الفولاني والحوصة والتكرور الدور الأكبر في انتشار الإسلام[1] .

من أهم ما يلاحظ عن انتشار الإسلام في إفريقيا أنه وإن كانت الدعوة للإسلام بدأت في غرب إفريقيا علي أيدي التجار من شمال إفريقيا إلا أن هؤلاء سلموا الدعوة وبطريقة تلقائية لشعوب المنطقة السودانية الذين قاموا هم بأنفسهم بحمل راية الإسلام وقد عبر عن ذلك عبد الله الا لوري بقوله « كلما اعتنقت قبيلة الإسلام تصبح بعد ذلك حاملة لواء الدعوة الإسلامية إلى ما قبلها من القبائل المجاورة »[2] .

طريقة تعامل التجار المسلمين وأسلوبهم في المعيشة جذب انتباه الأفارقة فكانت ملابسهم فضفاضة وغطاء الرأس المميز والأمانة التي تميزوا بها في التعامل في البيع والشراء والتيسيرات في البيع وأثاروا الفضول من حيث تطهرهم بالوضوء والصلاة علي مدار اليوم[3] . حيث أن الأقاصيص والحكايات تحكي عن الممالك الإفريقية القديمة التي وجدت قبل مجيء الاستعمار الغربي وقبل انتشار الإسلام عن نشاط التجار المسلمين فيها خاصة غرب إفريقيا وما يحكي ومازال إلى الآن لتداول قصة إسلام برمندانا كينا أول ملك من ملوك مملكة مالي القديمة قبل توسعها لتصبح إمبراطورية مالي علي يد سونديانا ١٢٣٠م .

وتحكي القصة أنه قد ساد المنطقة حالة قحط شديدة وجفاف كان يؤدي إلى الهلاك التام في هذه الأثناء طلب أحد التجار من الملك برمندانا أن يلجأ إلى الله طالبا بإخلاص هطول الأمطار « صلاة الاستسقاء » وعلمه هذه الصلاة وقاما سويا بالصلاة طوال الليل وفي الصباح هطل المطر وكانت هذه بداية إسلامه فأعلن إسلامه وبذلك كان أول ملوك مالي يعلن إسلامه ثم ذهب إلى الحج عام ١٠٥٠م ، مازالت هذه القصة تحكي في

(١)حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، مرجع سابق ـ صـ ٤٨ .

(٢)آدم عبد الله الالوي ، عثمان بن مؤدبو الغلاني « الإسلام في نيجريا » ط ٢ ، صـ ١٧ ، سنة ١٩٧١ .

(٣)حورية مجاهد ، مرجع سابق صـ ٢١٣ .

الصحف والمجلات وعلي أغلفة الكتب المدرسية في جمهورية مالي الحديثة[١].

ومن الأبعاد الاجتماعية لانتشار الدعوة الإسلامية عن طريق التجار هو تزاوج هؤلاء التجار من أسر رؤساء القبائل نظرا لقدرة التاجر المادية التي تميزه نسبيا عن الإفريقي العادي وبالإضافة إلى أن الإسلام ينادي بالمساواة المطلقة ولا يعترف في الإسلام باللون أدي هذا إلى اختلاط التجار بكافة الطبقات وتزوجوا منهم مما أدي إلى انتشار الإسلام[٢].

نجد من هذا – كيف أن التجارة والتجار هي من أهم وأولي وأهم أسباب انتشار الإسلام وإن كان من الملاحظ أن الهدف لم يكن أساسا نشر الإسلام ولا السيطرة علي القبائل والجماعات الداخلية بل كان الهدف الأساسي التجارة وجاء انتشار الإسلام من خلالها تلقائيا .

ثانيا : الطرق الصوفية[٣]

وهي واسعة الانتشار في المناطق الإسلامية في إفريقيا عامة سواء في الشمال أو الغرب أو الشرق وهي أوسع انتشارا وأكثر تأثيرا في إفريقيا جنوب الصحراء عنها في الشمال ومن الملاحظ أن نشاطها في نشر الدعوة بدأ متأخرا ولم يتبلور إلا في القرن التاسع عشر .

هناك تفسيرات كثيرة للكلمة البعض يفسرها أنها مشتقة من الصفة وهي فناء ملحق بمسجد الرسول(صل الله علية وسلم) بالمدينة أوي إليه بعض الفقراء من المسلمين وكانوا يلبسون الصوف وتفسير آخر هي الصوف للشاة والصوفة تؤخذ منه [٤] حيث اكتفوا بلبس الصوف كدليل علي الزهد والاهتمام بالباطن دون الظاهر أو الصفا «

(١)قصص وحكايات الأهالي ، إخباريين .

(٢)عز الدين عمر موسى ، انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي ، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة الإسلامية بالخرطوم ٢٨ – ٣٠ يوليو ١٩٨٣ .

(٣)لمزيد من المعلومات عن الصوفية انظر الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ط٤ ، دار الحرمين ، القاهرة ١٩٨٩م عن الطرق الصوفية عامة ص ص ٥٣٩ – ٥٩٦ .

(٤)الإمام محمد أبو بكر عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، دار الحديث ، القاهرة صـ٣٧٣ .

الصفاء » ومنها يصفو وصفوة الشيء خالصة ومنها اشتقت كلمة صفوة أو اصطفاه أي اختاره وإعادة مصطلح الصوفية إلى الصفوة والاصطفاء مرده عند الصوفية الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[1].

وأهم إنجازات الطرق الصوفية هو أن التحول للإسلام الفضل علي أيديهم من حالات فردية إلى حالات جماعية وهي تمثل عامة خطوة في تدعيم الإسلام في نفوس الإفريقيين والمعروف أن كثيرا من السادة الأفارقة ينشدون بركة المشايخ العارفين بأمور الدين والفقه ففي ظل الديانات التقليدية من الطبيعي أن يكون لمشايخ الطرق الصوفية مكانة خاصة .

من أهم الطرق الموجودة في إفريقيا هي القادرية والنيجانية والسنوسية والطريقة القادرية واسعة الانتشار في غرب إفريقيا وهي تعد أقوي الطرق في تلك المنطقة ومركزها الأصلي بغداد ومنها إلى مصر والمغرب والصومال واليمن والهند وتركيا وغرب إفريقيا ووسطها .

قام دعاة القادرية بنشر التعاليم الإسلامية وعملوا كمعلمين للصبية وأصبح بعضهم علماء بعد تفقهم في الدين كما اتجه البعض إلى كتابة التعاويذ والاحجبة وهي واسعة الانتشار في إفريقيا قديما وحديثا .

وتنشر أيضا الطريقة النيجانية في شمال وغرب إفريقيا ومؤسسها مغربي الأصل هو أبو العباس بن محمد بن المختار النيجاني وهي متأثرة كثيرا بالتعاليم الوهابية[2].

والسنوسية مؤسسها محمد بن علي بن السنوسي بن العرب الذي ينتمي إلى الأدارسة ومن دعوة السنوسي رأي أن الحدود السياسية في العالم الإسلامي حدود ومصطنعة وأنه يجب قيام حركة إصلاحية علي مستوي ذلك العالم الإسلامي في محاولة للقضاء علي البدع والانحراف والعودة للبساطة واليسر والتمسك بالكتاب والسنة وكانت بداية نشر

(١)سورة فاطر : آية ٣٢ .

(٢)حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، دار الفكر العربي ، القاهرة ٢٠٠٦ ، صـ ٥٤ – ٥٥ .

آرائه في الحجاز واعتمد في نشر دعوته علي نظام الزوايا والزوايا كانت مراكز للتعليم ونشر الهداية الإسلامية وبذر بذور الإسلام خصوصا بين الزنوج في أواسط إفريقيا[1] .

وقد اعترف كثير من المؤرخين والباحثين قديما وحديثا أن الفضل في نشر الإسلام في إفريقيا يرجع إلى الدور الذي قامت به الطرق الصوفية ولولا الاستعمار لأصبحت كل إفريقيا إسلامية وتصل نسبة النيجانية في مالي إلى ٢٠ ٪ .

ثالثا : المشايخ « المرابو أو الملا »[2]

من الظواهر الواسعة الانتشار في إفريقيا وجود المشايخ الذين يطلق عليهم عدة أسماء من أشهرها المرابو في غرب إفريقيا والملا أو المعلم في شرق إفريقيا وقد اكتسب المرابو خاصة في غرب إفريقيا أهمية خاصة حيث لعبوا دورا أساسيا في نشر الإسلام ومازالوا وكلمة مرابو هي كلمة تبدو غريبة علي العربية فهي كلمة فرنسية Marabout ولكنها في حقيقتها مستمدة مباشرة من العربية من كلمة مرابط ويأتي من كلمة رباط يرجع انتشار الكلمة في غرب إفريقيا إلى الرباط الذي أنشئ في السنغال بأبعاده الدينية والعسكرية وإن كانت الكلمة أصبحت تعني وجود أحد المشايخ وحوله مريدوه أو طلبته [3] والرابو أقدم تاريخنا في إفريقيا من الصوفية التي تبلورت في نهاية القرن التاسع عشر وقد أسهم المرابو في نشر الدين الإسلامي الذي استطاع بواسطتهم الوصول إلى الوجود الشخصي والاجتماعي للفرد الإسلامي استنادا علي القرآن أساسا كمصدر للوعظ والإرشاد .

إن انتشار الإسلام في العديد من المناطق الإفريقية يرتبط بالانتماء لأحد هؤلاء المشايخ أو المرابو بحيث أن الكثير من الإفريقيين يتفاخرون بانتمائهم هذا بل أن البعض لا يفهم الإسلام إلا في شكل هذا الانتماء ، وكان للمرابو أدوارا كثيرة بجانب التعاليم الدينية الإسلامية كانت لمساعدات اجتماعية ومالية للمحتاجين وعادة ما يقوم بتطوير المزارع الجماعية .

---

(١) حورية مجاهد ، مرجع سابق ، صفات متفرقة عن الطرق الصوفية من ٢٢٢ – ٢٢٨ .

(٢) الشيخ شبرتوهاوي عمر تيام « الإسلام في الدولة العلمانية مالي » ط١ ، جمعية عباد الرحمن باماكي ١٩٩٣ ، صـ ٥٥ .

(٣) حورية مجاهد صـ٢٢٨ .

وقد استطاع المرابو أن يلعبوا أدوارا كثيرة وأن يطوروا أنفسهم مع تطور المجتمعات وكانوا يقومون بتحفيظ القرآن للأطفال وتوفير العون والملجأ للفقراء والعجزة وكانوا يقومون بكتابة الأحجبة والتعاويذ وفك أعمال السحر وأيضا يقوم بدور المداوي يحل في ذلك محل الشفاء التقليدي القائم علي السحر والأطباء والسحرة [١] .

رابعا : المعلمون والدعاة المحليون

يقوم المعلمون وعلماء الدين المحليون دور كبير في تعميق إسلام الإفريقيين ، حيث أكملوا عمل التجار وقاموا بتدعيم عملية التحول للإسلام ونجد أن البعض من علماء الدين من الإفريقيين أسهم إسهاما كبيرا في إثراء الحضارة العربية الإسلامية ليس فقط علي مستوي إفريقيا وحدها ولكن في البلاد الإسلامية الأخرى حيث قام بعضهم بالتدريس في الجامعات والمراكز الإسلامية المختلفة .

ولقد ازدهرت مراكز علوم إسلامية بفضل وصول المعلمين وعلماء الدين من الحجاز وشمال إفريقيا لنشر تعاليم الإسلام ومن أهمها مركز جني وتمبكتو وازدهر أيضا إيفاد دعاة رسميين من جانب الدول الإسلامية وعادة ما يكون هذا بناء علي طلب الدول الإفريقية استجابة لشعوبها ومن ذلك ما يقوم به الأزهر وبعثاته وكذلك إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية [٢] .

الخاتمة :

نلاحظ من هذا أن الإسلام في إفريقيا لم ينتشر علي أيدي المبشرين منظمين مرتبطين أصلا بدولهم إنما الدعوة بدأت علي أيدي التجار العرب في الشمال والشرق وسرعان ما انتقلت إلى الشعوب الزنجية نفسها ليصبحوا هم رسل الدعوة الإسلامية في القارة بعد استيعابهم للإسلام

إن الإسلام انتشر سلميا وليس بحد السيف فهو انتشر ذاتيا وتغلغل في إفريقيا ممثلا

(١)إجلال محمود رأفت ، الدور السياسي للإسلام في السنغال ، دراسة تحليلية للطرق المريدية ، سلسلة بحوث سياسية رقم ٢٩ ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ١٩٨٩ .

(٢)حورية مجاهد ، مرجع سابق ٢٣٣ .

قوة زاحفة من الشمال إلى الجنوب وإن كانت الفتوحات الإسلامية والجهاد والدول الإسلامية التي قامت علي أساسه قد أسهمت في نشر الإسلام نظرا لنشر الأمن وطرق المواصلات وتأمينها مما يسر انتقال الدعاة المجهولين ورجال الطرق الصوفية والتجار حملة الدعوة الإسلامية غير المنظمة كما جذبت السلطة العديدين للدخول في الدين الإسلامي انتماء للنجية في ضوء مبدأ المساواة الذي أكده الإسلام .

كما أن الاعتبارات الاجتماعية هي أساس انتشار الإسلام إفريقيا خاصة جنوب الصحراء نتيجة الاحتكاك والتفاعل بين الأفراد والشعوب بجانب دور التجار والحرفيين في غرب إفريقيا دورا هاما حيث استقرت هذه الجماعات بين مستوطنات غير إسلامية وتزاوجت فيما بينها وساهمت بذلك في نشر الإسلام وكانوا الحرفين آنذاك هم صناع الجلود والحدادين وصناع الأسلحة وغيرهم من الحرف الأخرى .

قامت الدعوة الإسلامية علي أساس جماعي وليس فردي فهي لم تدعو فردا وإنما مجموعة فهي تنمية العقل قبل القلب في شأن الخالق والكون وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية لدخول كثير من القبائل بأجمعها في الإسلام ذلك لأنهم يميلون للتجمع والجماعات وبما أن رئيس القبيلة أو كبيرهم اعتنق دينا ما إذن جميع من هم في عائلته أو قبيلته علي نفس الدين .

إن الدعوة الإسلامية قامت أساسا علي التدرج والتسلسل وبالتالي لم يكن الدخول في الإسلام علي حساب الانفصال بين الإفريقي ومجتمعه وتغريبه عنه بل أن الانتماء إلى الإسلام جزءا من الأصالة الإفريقية فلم يرتبط الإسلام بثقافة وحضارة أجنبية ولم يقدم الدين بواسطة أجنبي ولم يتطلب التخلص تماما من بعض الممارسات التقليدية كالرقص وفن النحت والمعتقدات التقليدية كالإيمان بالأرواح والسحر والتقاليد الاجتماعية الموروثة كتعدد الزوجات أن الانتماء للإسلام لم يتبعه الشعور بالاغتراب بل العكس أدي إلى تأكيد الذات الإفريقية .

استمر نمو الإسلام نموا سريعا خاصة بالقرن العشرين والواحد وعشرين والآن بالدعم النقدي لنفط الخليج أصبح المسلمون قادرون علي زيادة معدل سرعة

التحويلات طبقا للإحصائيات بما يعادل ضعف سرعة المسيحيين بإفريقيا [1] .

كما أن هناك تشابه كبير بين ما يراه الإسلام من تقاليد والتقاليد والأعراف الإفريقية تأكيدا علي عادات الحياة اليومية والمعيشة اليومية كذلك القوانين الواضحة بشأن الرجل والمرأة وكيفية تعامله مع نظرية تعدد الزوجات كلها أشياء تؤكد التشابه الكبير بين الإسلام والتقاليد الإفريقية القديمة .

تطور المعتقدات الإفريقية في الوقت الحاضر[2]:

تتسم المعتقدات الإفريقية بالطابع الجماعي والسلطان المطلق في بيئة جغرافية ضيقة محدودة ونشأت في جماعة قليلة العدد شديدة التماسك أو جماعات تحوطها ظروف جغرافية صعبة منعزلة ، فعاشت هذه الجماعات في عزلة وانحصرت في رقعتها المحدودة وخضعت لسلطات دينية أو سياسية قاسية فمتى طرأ على حياة القبيلة ظروف جديدة تضعف فيها هذه الروابط الاجتماعية وقلت سيطرة الدين وتطورت مظاهره وهذا ما حدث بالفعل ، فقد حدث تطور أحدثته الاستكشافات الحديثة في القارة الإفريقية وزحف المستعمر إلى قلبها وقد أحدثت انقلاباً سريعا شمل كل النواحي الثقافية لاسيما الديانة التقليدية .

أدى استتباب الأمن إلى إضعاف و شل سلطة زعماء القبائل والتي أدت بدورها إلى إضعاف التماسك الاجتماعي للقبيلة فتبع ذلك ضعف السلطة الدينية وسلطة الرؤساء الروحانية وقدسية الملوك ، وقد أصبحت الأوقات التي كانت مخصصة للاحتفالات والابتهالات والأضحيات تزاحمها أوجه نشاط أخرى .

وقد كان الفرد في الماضي مرتبطا بموطن القبيلة ارتباطا تاما ، أما اليوم فقد اضطرته الأحوال الاقتصادية الحديثة إلى أن يفارق بيئته طلبا للعمل أو العلم ، ومن ثم ضعفت الصلة بينه وبين أهله ومجتمعه وآلهته وهجر كثير منهم مواطن آبائه وأقام في المدن حتى

(١)Islam making in roads in Zambia» http://www.news from africa .org / articles / art. 31-7-2008 .

(٢)لمزيد من المعلومات راجع هوبير ديشان الديانات في إفريقيا السوداء . راجع أيضا موقع:
http://Islamic web. Com/bgml population .htm (13- 12 – 2008)

وإن عادوا إلى قبيلتهم فإنهم لا يشتركون في أعيادهم الدينية وعقائدهم كما كان يحدث قبل مغادرته للقبيلة فقد أصبح يحمل عقلية جديدة وأسلوباً آخر .

وقد أثر التعليم الحديث تأثيرا بالغا في حياة هؤلاء الأفارقة حيث أمدهم بمعارف وحقائق تناقض ما تلقوه عن آبائهم وأجدادهم ووجدوا في العلم الحديث حاجتهم في الوقوف على سر الكون الذي لم يعرفوا تفسيراً ماديا له غير الأساطير والأقاصيص التي توارثوها عن أسلافهم ، وقد أدت هذه العوامل إلى أن يتخلص الفرد من تحكم الأسرة والمجتمع إلا أنه قد خسر الأمن والاطمئنان الذى كانت تبعثه في نفسه علاقته بالجماعة ونظرته إلى البيئة الطبيعية ، وقد نشأ هنا الشعور بالحاجة إلى إعادة بناء الهيئة الاجتماعية والحاجة إلى معتقدات جديدة تتمشى مع التطورات الحديثة والتي عجزت الديانات المتوارثة أن تلم بها أو تسد تلك الحاجة إلى التجديد فالديانات المتوارثة لا تقوم على أسس ثابتة أو واضحة ومنظمة، ومن ثم لم تستطع الديانات التقليدية البقاء على حالها إلا في المناطق البعيدة عن العمران والتي يعيش أهلها بمعزل عن المدنية الحديثة وخاصة في القبائل الأصلية الزنجية .

أما في المناطق القريبة من العمران والمدن والمواصلات حيث يوجد المناجم والمزارع والمناطق التي في حاجة إلى أيد عاملة ، ومع تحرك الإنسان إلى هذه المناطق بدأ يسير التنقل الاجتماعي والديني سيرا واضحا ، ومن هنا بدأ الإحساس والشعور بالحاجة إلى دين يشجع فطرتهم الدينية ويريح اضطرابهم الروحي[1] .

أولاً : المعتقدات الدينية التقليدية عند البمبارا :

تركز كل القبائل الأنظمة سواء الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية في القبائل الأفريقية جنوب الصحراء على فكرة الدين ،أي أن الدين يعد حجر الزاوية فيها وتعد هذه الشعوب من أشد شعوب الأرض تدينا .

تعد المعتقدات الدينية التقليدية عند البمبارا التي كانت سائدة قبل الإسلام بمثابة عادات وتقاليد مثلها مثل المتوارثات عن الأجداد وهي نتاج العلاقات الاجتماعية

(1)http://Islamic web. Com/bgml population .htm المرجع السابق

والمتوارثات القبلية ، وتعد البمبارا من أشد المجموعات العرفية في مالي خاصة والغرب الأفريقي عامة تمسكا بالمعتقدات التقليدية والعادات والتقاليد ولا يوجد في الوقت الحاضر سوى نسبة ضئيلة جدا ممن يعتقدون الدين التقليدي .

الدين التقليدي عند البمبارا :

* الإله الأعظم

تعتقد معظم الشعوب الافريقية بوجود إله متعال خالق للكون ولكنهم يختلفون في تقديم سلطته في تعريف أمور الدنيا . والفكرة السائدة بينهم هي أن هذا الإله يبعد بعدا شاسعا عن العالم بحيث يصعب على الناس الاتصال به ولذلك توجه العبادة إلى غيره من الآلة إذ أنهم المكلفون من قبله بالسهر على أمور هذه الأرض وهم رسله ووكلاؤه .

يعرف الإله الأعظم عند البمبارا باسم (فارو) faro وهو مخلوق من القديم الأزلي ، وصار إله الماء ثم تقلب على إله الأرض (بمبا) bmba ونظم شئون العالم ، هذا – الإله الأعظم قادر على كل شيء وخلق كل شيء ، هو الذي ينزل الغيث ويهب الحصاد ويمنح الخصب للإنسان ويعلم البشر فنونهم وصناعتهم وهو حافظ الأرواح ومصرف أمور الكون، كما يستطيع هذا الإله أن يظهر في أشكال عدة ، سواء كإنسان أو حيوان أو مظهر من مظاهر الطبيعة مكانه هو نهر النيجر ، وله عدد من الملائكة والجن يستخدمهم في كل مكان ولا يجوز أن يلوث محرابه طمث امرأة ولا يجيب دعوة الداعي إلا عن طريق الكهنة[1] .

وتتفق الديانة التقليدية عند البمبارا مع الإسلام في وجود خالق واحد أغلى وأسمى قادر على كل شيء ولكن تصورهم لهذا الإله يختلف عن تصور الإسلام .

أما عن تصورهم عن الشخص فهم يستخدمون للإشارة إلى الشخص أو التعبير عنه باستخدام May،Maa- الأولى تعني الشخص والثانية أهل الشخص وتشير العادات والتقاليد إلى أنه في البداية يوجد الـMaa ثم بعد ذلك الـMayaa فهم هنا يبدأون بالشخص كمركز ويمتد فيها إلى الباقية .

(١)هوبير ديشان – الديانات في أفريقيا السوداء – ترجمة أحمد صادق حمدي – دار الكتاب المصري . القاهرة .

وقد سبق هذا وجود آخر وهو الوجود الكوني ، حيث استقر الإنسان بهذا الكون في مملكة الحب والتناغم والتناسق التي تسمي Benke-so [1] .

وتتخذ العلاقة التقليدية بين الإنسان وربه بأفريقيا عدة أشكال البعض المقصود بما هو مقدس ، وكذلك الشعائر التي تدعم ذلك المقدس تختلف وتتنوع طبقا لنوع وكينونة ذلك الإله، كما أن معظم تلك العلاقات التقليدية المطروحة هي نتيجة لما تريده تلك الآلهة وحسب أهمية كرمتها(الكرامات التي تفعلها الآلة للإنسان) لدرجة أن من يزور ذلك المجتمع يتساءل . هل هناك مكان لله في هذا المجتمع ؟

يمثل وجود الإله Mayaa،Maa وهو الله الملك الدائم الذي لم يخلق وهو الذي خلق كل شيء ، وهو وراء ذكاء الإنسان وهو موجود في كل شيء لأنه جزء من كل شيء في الكون ولا يمكن الوصول إليه كما انه قريب جدا من الإنسان ، والمسافة بين العبد وربه مثل المسافة بين الظفر واللحم ،ولكن المسافة بين العبد العاصي وبين ربه بعيدة كبعد السموات ، وهناك وسطاء لابد منهم بين العبد وربه [2] .

*** عوامل الوساطة بين العبد وربه :**

نجد أنه طبقا للتقاليد يجب أن يحدد الثلاث عناصر الرئيسية للثالوث وهي :

١- القوى اللا مرئية التي تلهم وتوحي .

٢- عامل التحول والذي غالبا ما يكون عن طريق ظهور حيوان أسطوري .

٣- الرجل الذي يتلقى ذلك (الرجل أو الجد الأعلى أو المتلقي) .

وطبقا للتقاليد فإن مصدر تلك المعلومات مهما كان نوعها يجب أن يأتي من السماء ، لا يمكن لنا أن نفعل شيئا لم يأت من السماء عن طريق ماسا ديمبالي (وهو إله غير مرئي) في الوقت الذي يحدده هو ، لذلك فهم لا يقولون « اخترع » الرجل كذا ، بل نقول : « اكتشف » أو « أعاد اكتشاف » ذلك الشيء .

---

(1)Hampato ، Amadou . Ba (1972) Aspects of African civilization (persomn ،culture ، Religion) chapter 1 . (http://Islamic web. Com/bgml population .htm)

(2)Chapter 4 . Ibid

إن هذا الكائن الأعلى الأسمى من الصعب الوصول إليه وعبادته مباشرة لـذلك فهـم يلجأون لبعض الأفعال الوسائطية قرب السماوات negala kala يعظم في مكـان بعيـد جدا عن العبد المسكين Maanin ابن آدم لابد من وجـود وسـيلة تنقـل لـه الشـكوى والمرح وهي الأضحيات هي التي تحدد سعادة أو تعاسة المضحي .

وقد قسمت العوامل إلى مجموعتين الأولى عامة وطبيعية أما الثانية سرية وذات طبيعة خاصة

والكائن الأسمى لا يمكن تجسيده في هيئة حيوان أو نبات أو أي شيء كـالظواهر الطبيعية لأنه هو من يأتي بالظواهر الطبيعية « الرياح والأمواج والصواعق » وهذا الكائن الأسمى رهيب إلا أنه على الجانب الآخر رحيم ، كما أن الكلمات وحدها هي التي تؤثر عليه ، قد تجعله رحيماً ، فالكلمة هي التي تؤسس القواعد الرئيسية لتلك العوامل وقـد تحولها إلى بعض الأسحار .

ولا يقتصر الوجود الدائم للوسيط بين الإله والعبد فقط في العبادات وإنمـا نجـده في الحياة اليومية لشعب البمبارا ومالي ، فهم دائما يلجئون للوسيط من أجل تحقيق أمانيهم أو رغباتهم في شئ ما فهو المترجم لمشاعر هـؤلاء الأشـخاص ولكـل ملـك في بـامبرا مترجم خاص به حيث يطلق عليه « الفم المجيب The answering mouth » لذا فإن لكل إله مترجم خاص به والذي يعرف في عقيدتهم بالوسيط[1] .

* **الأسلاف** The Ancestors :

نجد أن معظم الشعائر الدينية التي يمارسها الشـعب البمبـاري هـي محاكـاة بدائيـة لبعض الأفعال المستوحاة من ماسا ديمبالي Masa Dembali وهـو إلـه غيـر مخلـوق ودائم ، تلك الشعائر نقلت عن طريق سلسلة من الأجداد المتلقين للأوامر من هذا الإله ولا يقتصر هذا الأمر البمبارا فقط ولكنه يبدو أنه من الصعب إعادة تشكيل عقل الرجل الأسود الإفريقي بدون استشارة الأجداد وتنفيـذ أوامـرهم وتبجيـل الأجـداد أو عبـادة الأسلاف كما ذكرناها .

(1)http://pender.ee.upenn.edu/rabii.toes/Ba Aspects ch4 . 9-8-2008

والسلف دائما شخص مسن أو الجد الأعلى للقبيلة أو العشيرة ويكون أول من تداخل في علاقة مع قوى الطبيعة المرتبطة بالله ، فهم يظنون هذه القوى الطبيعية خارقة أو كائن ليس له مثيل (روح) أو حيوان أو ظاهرة كونية فلكية ويكون هذا الشخص قد تلقى نوعاً من المعرفة الخاصة من تلك القوى ثم نقلها إلى ذريته وعليه فإن الجد الأعلى (السلف) ساماكي Samake كان قد تداخل في علاقة غير مرئية مع فيل منفرد عظيم ، كما تداخل الجد الأعلى لديارا Diarra مع أسد بدون أسنان[1] .

وهناك أربعة عوامل طبيعية رئيسية بين العبد وربه هي : النار و الهواء والأرض و الماء ورغم ذلك فأن أقرب الوسائط وأكثرها شهرة وتأثيرا هم الأسلاف ، فهم قد أسسوا القرية أو أقاموا العشيرة حيث أن هناك علاقة دم تربط بين السلف وبين ذريته من الرجال فهناك إذن رابطة عاطفية وأخرى خاصة بالإرضاع ، كما تربطه بنسله من النساء ، لذا فهو مقدس . ومن الطبيعي أن يكون مقبرة هذا الجد العظيم بالقرية أو بقرب منزل العائلة حتى يكون أقرب لأهله من الكائن الأعلى الذي يسكن السماوات والذي يخشاه البشر ، ويمكن للرجل أن يتحدث مع جده بلغته الطبيعية ويذكره بأنه من ذريته ونسله ويسأله بعض الأشياء ، فالجد بإمكانه التحدث مع الكائن الأعلى والأسمى كما أنهم يفضلون الحديث مع الجد فكيف يصلون للرب فبينهم وبينه عقبات كثيرة سحاب وجبال ... الخ فقد يضيع صوت العبد بين السحاب والفراغ ولا يصل للرب (في اعتقادهم).

دائما ما يضحي الرجل بشراب من أجل جده قبل أن يطلب منه شيئا ، وهذه ليست بعادة دينية فقط بل أيضا هو واقع من وقائع الحياة اليومية . لذلك عندما يقوم أحد بزيارتهم أثناء إقامة تلك الشعائر فإن أول ما يحدث أن يقدم إليك الماء سواء كنت تشعر بالعطش أم لا ، ولا يتحدث إليك قبل أن تبلل شفتاك ، فلتشرب هذا الشراب أولا ، و كما أن من يشعر بالعطش يفقد روحه فذلك الذي يرفض الماء يرفض الحياة ويرفض أي فرصة من أجل إقامة علاقة طيبة [2] ومن ثم الشرب أولاً .

(1) أسماء جدود Samake ، Diarra Ibid (http://Islamic web. Com/bgml population .htm

(2) www.princet.oral.com (Op-cit)

ويتحول الجد بعد موته إلى روح حارسة شريطة أن تكون ذريته قد أقامت له الجنازة المشرفة لروحه وقامت بالاحتفالات الخاصة باليوم الأول والثالث والسابع والأربعون بعد وفاته .

فالروح قد تحررت أخيرا من الجسد الذي يمثل عدم النقاء والطهارة فمجرد تحررها تصبح طاهرة نقية بعيدة عن أي شوائب من الحياة فتستطيع أن تستجيب لأى دعاء .

وعبادة الأسلاف عند البمبارا أن تتقمص الروح طفلا يسمى باسم سلعة ويحمل كتيبة وسفارة ويعتقدون أن روح جد الأسرة تحل في أحفاده ولا يليق أن يعيش الطفل مع أبيه تحت سقف واحد فإن سلطاته تتعارض مع سلطة والده وهو رب الأسرة .

يعتقد الباما نا أن الرجل هو بذور من الكون تستخدم في الاحتفالات للسيطرة على البيئة فالرجل لا وجود له كفرد لكن كشخص ، فهو موجود مع أشخاص آخرين لتحقيق أغراض مشتركة ولكل منهم سلف ورموز خاصة به . يعتقد البمبارا أن الإناث رمز إخصاب الأرض سواء في أوقات الجفاف أو الحصاد والذكور هي الواهبة للحياة حيث أن سلالة أول رجل هي التي جعلت الأرض صالحة للزراعة وهو الذي أسس أول قرية ، فهو يحتل نصيب الكاهن الأكبر حيث يقوم بطقوس العبادة في الأرض ويدعو للجفاف في وقت اشتداد المطر لكي يرسل المطر بعيدا إذا استمر طويلا فهو يعتبر الزعيم الروحي التقليدي[1] .

*** عبادة الطبيعة (الحيوان – النبات – المعادن والأشياء) :**

الحيوان في عرف البمبارا نفسان (ني – وديا) مثل الإنسان العاقل ، فإذا قتل صيدا ما تعقبه روح تلك الفريسة في أنحاء الغابة لتنتقم ، منه لذلك يجب علي الصياد أن يؤدي مراسم خاصة ليقتنص فريسته ، ولكل أسرة قريب أو نسب ما من الحيوان يحرم عليها أكل لحمه ، والحدادون لهم القدرة على التحول إلى ما يشاءون من أنواع الحيوان .

***

(١)هوبير ديشان – الديانات فى افريقيا السوداء – مرجع سابق – ص ص ٣٣ – ٤٢ .

النبات والمعادن :

تزعم البمبارا أن النبات يسري به أحد جوهري الروح (تي) فلابد من إقامة شعائر دينية للاحتفاظ بهذا السر وكما تزعم أن الطماطم وحدها هي التي يكمن فيها الجوهر الثان(ديا) ويعتقدون أنها هبه الله لعباده ، وأنها سبب الحياة بحيث إذا أكلت منها امرأة وخصبت من نطفة الرجل أنجبت ، فهي تساعد علي الإنجاب.

عبادة الأرض والعناصر والنجوم :

تعتقد البمبارا في عناصر أربعة ، هي : الماء والهواء والتراب والنار ، إلا أنهم يعطون أهمية كبرى لإله الماء والنار ، فإذا فاض نهر سارعت القبائل إلى تقديم قرابين له ضارعين إليه أن يروي أراضيهم حتى يزرعوها . ويعد الماء مكملاً لقوة النار وليس ضده ، لأن النار تحدث بخار الماء الذي يرتفع للسماء ثم يعود إلى الأرض في هيئة المطر وتلك هي دورة الحياة .

العلاقة العرقية بين الكائن المقدس وظهوره :

إن فكرة القدسية عند الشعب البمباري هي فكرة « إيمانية » يحوطها الغموض وتوجد كلمات تعبر عن الكائن المقدس مثل nyama أو يفعل وهي تعبر عن كل ما يمثله من صفات أو مكان ظهوره وتنسب بعض الكلمات مثل nyama إلى الكبار في السن من وجهة نظرهم حيث يوجد الإله منذ بدء الخليقة وهو قديم جدا ، لذلك اختار أن يتجسد في هؤلاء الكبار ليصبح العمر الطويل من مظاهر القدسية . ففي بامبرا يمثل العضو الأكبر سنا لتجسيد العامل القوة المقدسة، ومن مظاهر القدسية أيضا أن يكون الإنسان عالي القامة Kora – Fa فعلو القامة كما في الجبال والأشجار هي أيضا موجودة في الإنسان وتتمثل فيما يملكه الإنسان، فهو من علامات القوة «Se» .

أن عبارة «Ngala akli . Korotu» وهي دعاء بعلو القامة ، ومعناها أدعو الله أو الإله أن يعلي قامتك

(مقامك) فهي يستخدمها شعب البمبارا ، وهي أيضا تستخدم في الإسلام والمسيحية.

وتعد هذه القوة مظهراً من مظاهر الحياة القدسية ، وعلى ذلك فإن صالح الأعمال كالأخلاق الحسنة واحترام الآخرين والإحسان إلى الضعيف ومساعدة الآخرين وحتى مساعدة الحيوان تعد إحدى وسائل الحياة لـ nyama وهي حماية من غضب ملك الكون العظيم ، والإنسان عليه أن يتهيأ لإحدى العقوبات العظيمة عن غضب الآلهة ، مثل تعرضه لبعض الأمراض الشريرة أو فقدانه لما يملك وفي بعض الأحيان الموت ببشاعة .

« وسيد السكين » هو أحد الآلهة ، وهو الوحيد المسموح له باختراق بعض القوانين الإلهية وذلك لأنه تعلم سر الكلمات حيث يقوم بتلاوة بعض المقدسات قبل أن يلمس أيا من تلك الأشياء المقدسة والتي تدب بها الحياة بمجرد أن يلمسها شخص ذو قوة فوق العادة يجب أن يكون له القدرة علي التحكم بها[١] .

وترتبط فكرة الوجود والحضور الدائم لبعض القوى الخفية بمناطق متعددة بفكرة وجود بعض الأرواح أو الجن (Jinn) فعلى الرغم من قوته العظيمة إلا أن هناك بعض الحقائق التي توحي بوجود بعض الاتفاقيات بين كل من أسلاف الجن مع البشر والتي تنص على أن يطيع هذا الجن البشر وذلك إذا استخدم هذا البشر بعض الصفات المعينة والتي تتوارثها الأجيال بعد الأخرى وهو مايعرف ب (تسخير الجان) .

تعرف الجان عندهم باسم دازيري Dasiri وهي التي تحرس الدور وأخرى تسمي سويا، تحرس الطرق وتقدم لها القرابين من ثمرة الكولا أو من خيوط القطن حتى يتخلص الناس من أذاها[٢] .

وجوهر العبادات عند قبائل البامبارا هي عبادة السماء وأركان الأرض الأربعة والجن ، كما يستخدمون من الحجر أو الشجر أو أماكن الماء محرابا لتريح الضحية وكل من وصل إلى سن البلوغ إذا كان رب الأسرة مالكا لمسكن أو أجريت له عملية الختان فهو أهل لأن يقوم بالتضحية ، ويضحي عادة بحيوان أليف

(طير – كبش – ثور) إلا إذا كان المتقرب صيادا فلابد أن يقدم حيوانا بريا ، ويلزم

(١)http://pender.ee.upenn.edu/rabii.toes/Ba Aspects ch4 . 9-8-2008

(٢)هوبير ديشان – الديانات فى افريقيا السوداء مرجع سابق صـ٥٠ .

أن تطول مدة احتضار الذبيحة، لأن شكل حركاتها يتخذه العرافون للتكهن بالغيب ويوزع لحم الضحية على الحاضرين وفيه رمز الوحدة الروحية بين الجميع ، وفي الماضي كانت العادة أن تقدم ضحية بشرية في الأحوال الخطيرة التي تهم المملكة وكان الضحية في الغالب شخصاً أشقر اللون (عدو الشمس) وهو اللون الذي يفضله الإله فارو. ومن العبادات المنزلية التي تستهدف الاحتفاظ بالقوى الحيوية للأسرة ورفع كل خطر قد يصيب الجماعة واستقبال أرواح الموتى التي تحمل في أجسادهم ، وتخصص في البيت حجرة تضم المحاريب الخاصة بكل فرد منها وتضم أيضا المحاريب العامة للجماعة ، وتصور الأحياء جدرانها بصورة ترمز للأموات والأحياء وأجزاء الكون.

كما توجد شعائر جماعية للقرية توجه للآلهة (فارو) أو للأسلاف تقدم فيها أضحيات من الضأن أو الطير أو قرابين من القطن وثمر الكولا على أن يكون لها لونها أبيض .

وتقام العبادات الرسمية في نهاية كل شهرين تجمع قمامة القرية التي يزعمون أن لها قوى حيوية كثيرة ثم تحرق بعد ذبح الضحية ويقدم جزء من رمادها إلى الإله (فارو) والبقية إلى أعضاء مجلس(الكومو) الديني ، ثم يخلطونه بالطعام وتقدم الأضحيات قبيل موسم الأمطار وبعده حول شجرة مقدسة أو علي شاطئ نهر ويقترن هذا باحتفالات الغناء والرقص واللهو ، كذلك تقام شعائر لاستقبال العام الجديد وتوديع العام القديم ، والطقوس الزراعية لها المقام الأول ولها اهتمام كبير لديهم[1] .

فكرة نشأة الكون عند البامبارا :

يزعم البمبارا أن الكون كان في البداية فراغا هائلا يتحرك بحركة ذاتية حول محورين حلزونيين يدوران في اتجاهين عكسيين فانطلقت من بينهما قوة هائلة (زوZo) نشأ منها العقل (يو Yo) فلما دار الجهاز في الجهات الأربع الأصلية فتكونت منه عوالم أربعة ، فالعالم الحاضر هو الثالث ، وعالم المستقبل هو الاتجاه الرابع ، وعلى ذلك تكون قوة الذبذبة هي السبب في تكوين العالم ، ثم تبع ذلك نشأة المخلوقات ، أولها اثنان وعشرون عنصرا هي الخصائص العامة للكائنات ، وهي عناصر التفكير ثم سقوط مادة

(١)المرجع السابق ص ص ٥٥ – ٥٧.

ثقيلة هي (بمبا Pemba) في ذلك الفراغ فتولدت عنها الأرض ، وفي الوقت نفسه يقوم جانب من العقل (فارو Faro) يعلو فيحلق في السماء ثم تهبط هذه القوة من جديد على الأرض في هيئة مطر فتمدها بالحياة .

ويعتقدون أيضا أن الإنسان في بداية خلقه حيوان مائي خرج من الماء لذلك يعتقدون أن الصيادين (يوزو) هم أول المخلوقات ثم يتحول الإله (بمبا) وهو رمز الأرض وتربيتها إلى بذور (البالانزا) ثم يجرد (بمبا) من شخصه شخصاً زوجة (موسو كوروني) Mausso Koroni ويتولد الرجال فارو ويوجهون دعائهم إلى بالانزا وكان الرجال في بدء خلقهم مخلدين كلما بلغوا التاسعة والخمسين عادوا أطفالا في سن السابعة . وكانوا يعيشون عراة الأجسام كسالى لا يؤدون عملا ولا ينطقون إلا همهمة ولما طلب (بمبا) أن تقترن النساء كلهم به ثارت امرأته (موسو كوروني) وأعمتها الغيرة فأتت العالم صادقة منتقمة من الرجال والنساء تبتر أعضائهم التناسلية (أصل فكرة الختان والخفاض) الختان للرجال والخفاض للنساء أي أن فكرة الختان عند النساء موجودة في المجتمع من قبل الإسلام .

وبذلك انتشر الاضطراب في الخليقة وانتشرت التعاسة والموت بينهم ولونت الأرض وأخيرا ماتت موسو واكتشفت بمبا ما للدم من قيمة حيوية وطلب من الرجال أن يقدموا ضريبة من دمائهم ولما استنفدوا دمائهم لجئوا إلى (فارو) الذي أمر أن تتحول ثمرة الطماطم في أجسامهم إلى دم وإلى جنين.

ثم شن فارو حملة شعواء على بمبا حتى هزمه وأبطل عبادة (بالانزا) ولكن الشجرة أنذرت الناس بأنهم منذ اليوم لن يكونوا خالدين .

ثم انفرد (فارو) بتنظيم الكون بعد أن هزم سلطان المادة فخلق الليل والنهار والفصول والسماوات السبع وأجزاء الأرض السبعة وجعل الناس شعوبا وقبائل وبين لهم المحرمات ومنحهم الأقوات من البذور الثمانية وهو إله الماء وهو الذي يمسك في قبضته الينابيع الاثني عشر، سيطلقها يوما لتغرق الأرض تمهيدا للإتيان بخلق جديد هو عالم المستقبل .

وينقل (فارو) في هيئة زوبعة هائلة حلزونية الشكل كل أربعمائة عام ليرقب نظام

العالم ويرمز

(لفارو) هذا بقبعة مضفورة من ثمان دوائر كانت في القديم لباسا للملوك ، والاعتقاد في قوة الأعداد مشترك بين البامبارا والروحيين وكلاهما يعتقدون في رقم (٧) ويعتقد البامبارا أيضا في رقم (٧) ويزعمون أن به قوة سحرية [١] .

أسطورة خلق الإنسان عند البمبارا :

سيد الآلهة وهو Maa – Wgala وهو الذي قد خلق نفسه ، وهو الإله الأول ، ثم بعد ذلك قام بخلق عشرين مخلوقاً وهؤلاء العشرون كونوا العالم بالكامل فيما بعد ، ولكن وجد أن هؤلاء العشرين لا يوجد من بينهم من يستطيع أن يتحدث إليه ويقال له Kama – nyok [٢] لذلك قام بأخذ قطعة صغيرة من كل واحد من هؤلاء العشرين وخلطها معا ثم كون منها مخلوقاً رقم واحد وعشرين الذي كان هجيناً من كل العشرين السابقين وهو الرجل الذي أعطاه اسم Maa ومن ثم تنظر تقاليد البمبارا إلى ذلك الإنسان على أنه صورة مصغرة للعالم حيث أن جسده أو في جسد واحد وفي نفس الوقت استطاع أن يحتوي على قطعة من جميع الكائنات في العالم من حوله .

أما الجانب النفسي فهو معقد بعض الشيء ذلك لأن الجزء المعروف يمثل منه لا شيئاً بالنسبة للجزء غير معروف ، وسبب هذا التعقيد أن هذا الإنسان مع حصوله على الاسم المقدس الذي يمثل النصف الأول من اسم الإله (Maa) فإنه أضفى عليه صفة الأرواح و هو الذي أصبح مخاطب الإله أي الذي يخاطب الإله ويتحدث معه ، ومن ناحية أخرى فإن طبيعة تكوينه والطريقة التي تم تكوينه بها عن طريق عملية خلط وتهجين مجموعة من الأجزاء الأخرى جعلته ملتقى لجميع القوى الكونية الأعلى منها والأدنى .

حيث أن القوى المتنوعة والمتعددة التي تتجول حول العالم تختفي داخل ذلك الـ Maa وهي التي عملت على تكوين ذلك الشخص النفسي وهذا الجانب النفسي منبعث من روح الـ Maa نفسه .

---

(١)هوبير ديشان – الديانات فى افريقيا السوداء – مرجع سابق ، صـ٦٩ – ٧٠ .

(2)http://Pender.ee.upenn.edu//rabii/toes/htm.

ويتضح هنا أن هذا الشخص ليس كائناً منغلقاً على نفسه ولكنه منفتح في العديد من الاتجاهات ، وهذه الاتجاهات خارجية وداخلية ، وهو دائما متصل بجميع المخلوقات ولا ينظر إليه على أنه منعزل أو مستقل عن غيره وأن عناصر الحياة متواجدة ، وأن الإنسان الذي يعيش في هذا العالم وغير منفصل عنه هو جزء منه ويحافظ علي وجود علاقات وتبعيات واتزان مع الآخرين في العالم والـ Maa هو الذي يحمل بداخل نفسه عنصراً من كل الأشياء التي توجد في الكون هو الذي يعمل على حدوث عملية الاتزان في العالم الخارجي وفي الكون بالكامل وهذا جعلهم يربطون بين خصوبة التربة و انتظام الأمطار والتوازن في قوى الطبيعة وبين مقدار السوء أو الخير الذي يتم عمله من خلال الكهنة الدينية التقليدية[1] .

السحر عند البمبارا :

يستخدم السحر في البمبارا سواء كان مسلماً أو تقليدياً أو مسيحياً كلهم يستخدمون السحر بغض النظر عن ديانة من يستخدمه أو لمن يستخدمه نجد السحرة المسلمين يطلق عليهم المرابطين وهم الجماعة التي تقوم بالسحر وتستخدم كلمات القرآن الكريم .

أما التقليديون يستخدمون أوراق وشجر معروف لديهم ، يطحن مثل الدقيق ويخلط بالأكل أو الشراب[2] ويستخدم السحر الكهان والمشايخ والقساوسة ولا يقتصر مهنة السحر على الكهان المحترفين ، بل توجد أساليب أخرى من السحر يزاولها الأفراد غير المحترفين إذا كانت تكمن فيهم قوى خفية تكشف لهم عن الغيب تجدهم مثلاً يستطيعون التكهن بالأعداد ، فالعدد اثنان وعشرون (٢٢) يقابل عدد العناصر المكونة للخليقة ، العدد (١) يقابله الإله فارو ، عدد (٢) للتوأم ، العدد (٣) للرجل ، العدد (٤) للمرأة ، العدد (٧) للكون. كل شخص في قبائل البمبارا يستطيع أن يستخدم الأعداد التي يصل إليها بطرق متعددة كأن يقيس طول ظله وقت الزوال بخنصره أو باستعمال

(١)Hampala Ba. Amadou . (1972) Aspects of African civilization ، Translated by Susan B . Hunt C. 1 (http://pender.ee.upenn.edu/rabii.toes/Ba Aspects ch4 . 9-8-2008)

(٢)إخباريين.

ثمرة الكولا أو بطرق الودع أو ضرب الرمل [1] .

استخدامات السحر عند البمبارا :

يستخدم البمبارا السحر في مواقف كثيرة منها :

* إتمام عملية الزواج بين الرجل والمرأة .

* التفرقة بين الزوجين ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

* استخدامه في القتل كما يفعل الوثنيون (التقليديون) .

* يستخدم أيضا لإيذاء شخص أو امرأة بالعقم .

* يستخدم قبل الزراعة لقلة المحصول أو خراب الأرض .

* يستخدم للنفع بوضع البذرة وعمل تعاويذ وقراءات عليها قبل وضعها في التربة لزيادة المحصول .

* هناك أيضا سحر لزيادة الدخل وهذا السحر له طلبات مثل ماعز أسود أو دجاجة سوداء ويقرأ عليها التعاويذ وتدفن في مكان محدد وهي حية (علي قيد الحياة).

* يستخدم السحر أيضا لإيذاء أي شخص غير مرغوب فيه .

* وتستخدمه الزوجات أيضا لإيذاء أبناء بعضهن إذا كان بينهم خلافات .

* ويستخدم لجلب الفقر والمرض [2] .

الجمعيات السرية :

تعد الجماعات السرية جزءاً أساسيا، من البناء الاجتماعي ، قد تعمل هذه المنظمات ضد النظام الاجتماعي أو معه ، وهي عادة ما تكون من جنس واحد فقط إما نساء أو رجال ، وفي الغالب تكون الأكثر شيوعا في مجتمعات الرجال كما توجد الجمعيات النسائية ولكنها قليلة في المجتمعات المحلية الصغيرة وهذه الجمعيات السرية لها

(١)هوبير ديشان . الديانات في إفريقيا السوداء ، صـ٩٢ ، مرجع سابق .

(٢)إخبارين.

شروط في العضوية ولها أهدافها وتكون واضحة وصريحة ومعلناً عنها وتختلف الأهداف باختلاف المجتمعات نفسها ، ولكن أهدافها نابعة من احتياجات المجتمع وفي خدمة الجماعة فهي أهداف إدارية ، تعليمية ، دينية ، عسكرية أو وظائف اقتصادية ، هذه الجمعيات لها تأثيرها الكبير واحترامها بسبب الاعتقاد العام بأن لها قوة سحرية كبيرة كما أن الاعتقاد بأن أعضائها لهم هذه القوة السحرية عليهم من خلالها السيطرة على باقي أفراد المجتمع [1].

والجمعيات السرية جمعيات دينية تنتشر في السودان الغربي (مالي حاليا) وتلعب دورا هاما في الحياة السياسية والاقتصادية التقليدية للقبائل وكلها تقوم على أساس ديني ، والمهمة الأولى لكثير منهاهي الاحتفال بعبادة الإله ، ويحتفل عند الانتساب إليها احتفالا يعرف باحتفال التلقية ويختص الأعضاء ذو المراتب الدينية الرفيعة فيها والذين يتميزون بمعرفة سر نظام الكون والرموز المقدسة معرفة تامة[2].

وتعد جمعية كومو (Komo) من أهم الجمعيات السرية الدينية في Bambara بامبارا و تتكون من جميع المراهقين المختونين(الذين أجريت لهم عملية الختان) في القرية ورئيس هذه الجماعة حداد يتولى حراسة المعبد وإدارة شئون التراث القبلي ، ومعبدها الكبير يقام في كوخ يضم ثلاثة محاريب واحد للأنفس وآخر للبنات وثالث لإله الذرة .

وشعار الجماعة (قناع كومو) الذي يتميز ببشاعة المنظر حيث يدخل الرعب في القلوب فهو عبارة عن رداء أسود اللون له ذراعان ينتهيان بمخالب مسمومة ، ويقبل في عضويتها في وقت واحد كل من أجريت له عملية الختان في وقت واحد في دفعة واحدة ويقام كذلك احتفال ديني في الليل، وفي أثناء الاحتفال يشرح لهم الأدوات والآثار التي خلفها السلف ثم يلقنون مغذي القناع ونظام التشكيلات القبلية وتؤخذ عليهم عهود بألا يبوحوا بشيء من الأسرار التي لقنوها وينتهي الحفل بالتآخي، فتذبح عنز يشرب الجميع من دمها رمزا للوحدة الروحية . ويعد ذلك بمثابة طقوس للمرور لهذه الجماعة .

(1)londo Roat leg and Ke Gan Paul . Notes and Queries on Athroology . Broal way house . Carto Lane

(٢)الديانات فى افريقيا السوداء – مرجع سابق صـ ٧٨.

وتدور في هذه الجلسات مناقشات وسجلات حول مشاكل القرية والجماعة ، ثم تتلوها حلبة الرقص بالقناع ، وإذا باح أحدهم بأسرار الجمعية تجرحه مخالب قناعه ثم يعدم .

أهم أعمال هذه الجمعية (كومو) تنظيم الحياة في القرية ، خاصة المراسم الزراعية المقدسة واتخاذ القرارات السياسية وتنظيم العمل وإقامة العدل، ومجلس الكومو هو حارس التقاليد الاجتماعية والأساطير القبلية ويعتبر هو العمود الفقري في مجتمع البامبارا ، ولا تقبل النساء في عضوية هذه الجمعية[1] .

من أعمال الجمعية أيضا (Komo) أن لها سلطات روحية واسعة فهي تباشر المراسم الجنائزية حيث يقوم زملاءالمتوفى في المرتبة والسن بحمله إلى مقره الأخير ، ثم يناشده رئيس الجمعية بقوله « أتوسل إليك ألا تؤذينا ، فدعنا نعش في سلام ووئام ، وليكن زرعنا ناميا ومحصولنا وفيرا ، وامنحنا بركاتك فقد أعطيناك جميع حقوقك ونحرنا لك القرابين » وتنحر الذبيحة ويلقى دمها داخل القبر ثم تحرق بعض ممتلكات الميت ، السرير ، الحصير ، المشط ، الشعر ويوضع رمادها داخل القبر لتلحق به في الدار الآخرة وبعد ذلك ينصب محراب الميت في منزل أسرته ويدعم المسكن بعمود يمثل عميد الأسرة ومؤسسها.

ومن عاداتهم أنهم قبل بذر الحب لزراعة الأرض ينادون أسماء موتاهم ، وكل ميت يمثله وعاء كروي فيه كل الحبوب التي تطبخ وتصب عند مدخل المسكن حيث تنحر الذبائح ثم إنهم يقيمون كل عام حفلا حول قبور الأجداد ويشترك فيها لابسو الأقنعة بالرقص حول القبور[2] .

* الفن عند الباماناأو البمبارا يستخدم لخدمة الدين ، فقد قام شعب الباماناا بتطوير العديد من العادات والتقاليد الدينية واستخدامها في الجانب الديني ، من هذه الأعمال الفنية التقليدية صناعة الفخار ، النحت ، النسيج ، صناعة الأغراض الحديدية والأقنعة وهي موجودة إلى الآن، وتستخدم في الأسواق السياحية ، وأصبحت محل الاهتمام

(1)http://www.priceetonol.com/group/iad/lessons /middle /maskscoi (21-8-2008)

(٢)الديانات فى إفريقيا السوداء – مرجع سابق - صـ٢٤.

الأكبر حيث يتم تصنيع تلك الأدوات والأغراض التى تحتاج إليها تلك الأسواق ، وأصبحت هذه الأدوات تعكس بشكل كبير المعتقدات الدينية والشعائر التي يقوموا بها[1] .

ومن الأشكال الفنية لدى هؤلاء البامانا ما يسمى بقناع ntomo والـ tyi warra ، حيث أن قناع الـ ntomo يتم استخدامه من قبل الراقصين الذين يشاركون في احتفالات التكريس بينما الـ tyiwarra فإنه عبارة عن غطاء للرأس يتم ارتداءه من قبل هؤلاء الشباب من الرجال أثناء فترة الحصاد .

بالإضافة لوجود بعض التماثيل للبامانا والتي من أشهرها تماثيل الخصوبة وهي تماثيل لابد من تواجدها مع المرأة باستمرار وذلك من أجل الحفاظ علي خصوبتها بشكل مستمر .

بالإضافة إلى بعض التماثيل التي يتم تصنيفها لبعض الجماعات المهنية المختلفة .

الأقنعـــة :

تستخدم كثير من المجتمعات الإفريقية الأقنعة (الماسكات) وينظر إليها على أنها وسائط بين العالم الذي يعيشون فيه وبين العالم الآخر أو أنها الصلة بينهم وبين الآلهة وبين الأجداد وتستخدم هذه الأقنعة في المناسبات والاحتفالات ويرتدون معها لباساً مخصوصاً لكل قبيلة وكل قناع له سبب لارتدائه إفادة في وقت معين ، فهناك قناع خاص للزراعة وقبل الزراعة ووقت الحصاد وهناك قناع لإنزال المطر ، هذه الأقنعة منتشرة بشكل كبير في مالي وخاصة في بمبارا .

والقناع عبارة عن قطعة من الخشب يقوم بنحتها النحاتون وهم أناس متخصصون في ذلك ويترك ليجف في الشمس ، وبعد أن يجف يبدأ النحات بنحت السمات الدقيقة الخاصة بكل قناع وبعد ذلك يرسم بأصباغ من الفحم النباتي لإعطاء اللون الأسود ومساحيق مصنوعة من مواد نباتية أو أشجار لإعطاء اللون مثل الأصفر ومساحيق المعادن مثل الطين لإعطاء لون أبيض .

(1) http://www.zyama.conatribd.Art Bambara (Bamana) 8-7-2008

ويرمز للموت في معتقدات كثير من الشعوب الإفريقية باللون الأبيض بدلا من اللون الأسود[1] .

تستعمل قبائل البمبارا هذه الماسكات للحفاظ على التقاليد القديمة على الرغم من انتشار الدين الإسلامي في جميع أجزاء مالي تقريبا إلا أن هذه الماسكات تستخدم كشكل من أشكال الضبط الاجتماعي في المجتمع والتعليم . وتستخدم الأعمال الفنية التى تقدم على مسرح سيجو هذه الأقنعة لمحاولة ربط الماضي بالحاضر والحفاظ على التقاليد وكنوع من التعبير عن الرأي في بعض قرارات الدولة بالقبول أو الرفض في صورة كوميدية فنية بدون أن يتعرضوا للعقاب وهذا في رأي الباحث يدل على ذكاء هذا الشعب وليس العكس كما وصفته بعض الكتابات وخاصة الغربية[2] .

Tyiwara (**التشى وارا**) : صور أرقام (٥،٦،٧) عبارة عن تاج يلبس على الرأس مصنوع من الخشب قاعدتة خشبية على مقاس الرأس مثبت عليها القناع المصنوع من الخشب على أشكال حسب المناسبة ، هناك شكل رأس طائر أو رأس حيوان ظبي (كما هو واضح في الصورة)

و تستخدم الـ Tyiwara في الاحتفالات الخاصة بالزراعة وهي من الاحتفالات المقدسة والنشيطة عندهم يتم هذا الاحتفال بان يلبس زوج وزوجة الغطاء علي الرأس ويغطون وجههم وجسمهم ويوضع التاج Tyiwara ويؤدون رقصات في الصباح الباكر في الميدان وتأتي امرأة من الـ Tyiwara أيضا تغني علي إيقاع الطبول والرجال يرقصون مرتدين القناع والحاضرون من الفتيات الصغيرات يصفقن ويهللن ، وتجري هذه الاحتفالات لإعطاء شخص محدد جائزة الـ Tyiwara وهو من المتميزين في الزراعة ، ويقام كذلك عند تنظيم مسابقات للشباب والرجال ، حيث يسمح للفائزين بارتداء غطاء الرأس لـ Tyiwara والذي يسلم كجائزة لصاحب عمل مميز سواء في الزراعة أو الصيد أو مسابقات الشباب والرجال ، ويأخذه لمدة عام وإذا استمر تفوقه للعام التالي عند إجراء المسابقة أو استمر تميزه في الزراعة أو الصيد يحتفظ به عاماً آخر ، أما إذا لم

(1) www.keen.com/community server/user/3log post / divine .

(2) http://www.ethnographica.com/african_art/Bambara_peopels_gallery_.htm (8 -7 2008)

يحدث فإنه ينتقل للفائز (وبذلك يمثل وساماً يحفز على النشاط والنجاح) .

ويرمز Tyimara إلى أول مزارع عاش في البرية مع الوحوش وحاربهم وهو الآن يعطى للتشجيع على الزراعة للمزارع المثالي ، ويقوم الشيوخ وكبار السن بتلقين صغار المزارعين أهمية ال Tyiwara للحفاظ علي المعرفة والممارسات الزراعية والمهارات اللازمة لنجاح المزارعين لتوفير الاحتياجات اليومية لأسرهم وتعمل النساء أيضا في الزراعة كما قلنا سابقا بالإضافة إلى الأعمال المنزلية [1].

و بعد اعتناق الإسلام والتغيرات الحديثة في مجال العمل والالتحاق بالمدارس أصبح هذا الاحتفال يؤدى في الاحتفالات والمناسبات الرسمية فقط علي سبيل الترفيه ، فمنها ما يتم عمله من أجل المزارعين أو من أجل الصيادين ، فالبامانا ينظرون إلى تلك الأعمال الفنية التي يقومون بصناعتها على أنها تقوم بإرضاء وسعادة أرواح أسلافهم ، وهو الأمر الذي يمدهم بالقوة [2] .

ويرتبط الفن واستخدام الماسكات عندهم بالحياة الاجتماعية واتصال الماضي بالحاضر هو مستخدم عند الماندي عامة Mande ، (كما أن الحديث عن الفن في مالي عامة وسيجو (البامبارا) خاصة يحتاج إلى بحث خاصة لإلقاء الضوء على هذا الجانب من حياة هذا الشعب).

ويميز أهالي سيجو (Segou) (مجتمع الدراسة الميداني) المعتقدات الصحيحة والخاطئة ، بل ويدركون ربط الماضي بالحاضر ، بالإضافة إلى أن سيجو ، البامانا ، النيوزو ، الوموقو ، الماراكا يضعون هذا الفن ضمن وسائل الترفيه كما أن المسرح وتاريخه ونشأته والقصص الأسطورية المتعلقة به وتاريخه الخاص في جميع أنحاء ولاية سيجو بعيدا عن جميع الأشكال المسرحية الأخرى في هذه المجتمعات و رغم أن الفنون تعمل على تأكيد وجهات النظر المشتركة بين الأسلاف والكبار والشباب والرجال والنساء .

ولقد أكد دور كايم على أهمية الشعائر والطقوس ، فالطقوس تعكس نظام المجتمع

(1)http://tribart.blogspot.com

(2)http://africa within.com/religion/inhtr.to.art:htm (30 – 11 – 2008)

وكأن الإله الذي يعبده الناس هو فعلا المجتمع أي يجسد القيم وقواعد السلوك التي يعتز بها المجتمع ، وتساعد الطقوس والشعائر الموسمية على تقريب أفراد المجتمع معا في جو مشحون بالمشاعر والعواطف وهكذا يشعرهم باتحادهم وتكاملهم وبضرورة التمسك بتلك القواعد التي تساعدهم على البقاء[1] .

كما أن بعض الطقوس الخاصة بالزراعة مثل طقوس إنزال المطر قبل الإسلام كانت تقام لها احتفاليات كبيرة في مكان مخصص كالمعبد ، يوضع الإله وهو عبارة عن تمثال صغير في وسط الساحة ، وتقدم له الأضحيات من البقر والماعز كل حسب قدرته وإمكانياته ، ثم تقام احتفالية كبيرة مصحوبة بالرقصات والغناء، وبعد الإسلام عرفوا صلاة الاستسقاء وهي معروفة لدى جميع المسلمين[2] .

هناك أيضا عادات وممارسات خاصة بالزراعة تدل على مدى تعاون أهل القرية وجميع أفراد الأسرة منها :

* وجود جمعية في كل قرية يتكون جميع أعضائها من الشباب ، ويرأسها أكبر الرجال سناً الوظيفة الأساسية لهؤلاء الشباب هي القيام بالزراعة ومساعدة أصحاب الحقول الذين لا يستطيعون الزراعة بمفردهم ثم إنهم يقدمون هذه الخدمة بأجر غالباً أو بوعد التعاون في الزراعة المرة القادمة أي يجتمعون كلهم في زراعة حقل شخص وغدا يجتمعون ومعهم هذا الشخص لمساعدة آخر وهكذا .

تقوم النساء وقت الزراعة بالغناء لحماسة الشباب وحثهم على العمل ، ويتم التعاون أيضا بين السيدات في الزراعة حيث يجتمعن لمساعدة بعضهن خاصة وأن الزراعة هناك ليست قاصرة علي الرجال بل يشترك فيها الرجال والنساء على السواء .

* ومن اللافت أنه لا يوجد تعاون واضح بين زوجات الرجل الواحد في أثناء الزراعة ، على حين تقتضي التقاليد أن تمنح الزوجة التي لا تنجب طفلا من الزوجة الأخرى وينسب لها وتقوم برعايته حتى يتزوج .

(١)لوس مير ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة علياء شكري وآخرين ، تقديم محمد الجوهري سنة ٢٠٠٦ ، صـ٥١ .

(٢)إخباريين ، مقابلة رقم ٤ بتاريخ ١٠/ ٧/ ٢٠٠٩

* وخلافاً للزراعة فإن التعاون يظهر واضحا بين زوجات الرجل الواحد في حالة زواج الأبناء، فتقوم زوجة أخرى غير الأم بتحمل احتياجات وأعباء الزواج لأن الأم تتكفل برعاية الأطفال وتربيتهم فقط ومن ثم نجد أن كل زوجة تتبادل الأدوار مع الزوجة الأخرى .

* ويقوم الأب بتلقين الذكور كل الخبرات الخاصة للصيد ، الزراعة ، الحدادة أما البنات فأنهن يمكثن في المنزل لمساعدة الأم في نظافة المنزل وإعداد الطعام وهكذا تعد البنت لتصبح أماً في المستقبل ، أما في حالة الزوجات التي تنجب ذكوراً فقط فأن العادة أن يرسل لها إحدى بنات الزوجات الأخريات لتقوم بمساعدتها ، ولديهم مثل لذلك يقولون فيه :« الأبناء ملك للمنزل وللذين يقيمون فيه » فهم يخدمون كل من في المنزل : أمهم وزوجات أبيهم وأخواتهم ويراعون الصغير سواء كان شقيقاً أو من زوجة أخرى[1] وتربط الفنون الماضي بالحاضر وتنتقل من جيل إلى آخر حيث تقوم بتعليم الشباب المهارات الضرورية

لهم حتى يتحولوا إلى رجال اجتماعيين يقدمون المجتمع ولديهم القدرة والسيطرة علي بعض المشاكل وبعض أنواع التوتر التي تنشأ بين التقاليد والحياة المتغيرة وكذلك بين الفردية والجماعية[2] .

ثانياً : المعتقدات التقليدية والتنشئة اللاجتماعية

تتميز المجتمعات الإفريقية بوضوح النزعة الدينية وتأثيرها البالغ فى مجمل الحياة الإفريقية في مجالاتها المختلفة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو قرابية ، كل هذه المناشط الاجتماعية ترتكز علي أسس دينية وتصاحب ممارستها شعائر وطقوس دينية معينة فهي تتغلغل في نفوس أعضاء المجتمع ويقدسها الجميع ويمارسون هذه الشعائر والطقوس برضا وسعادة بالغة .

يذهب علماء الأنثروبولوجيا إلى اعتبار الدين إحدى السمات الهامة أن لم يكن هو السمة

(١)إخباريين بتاريخ ١٩/ ٧/ ٢٠٠٩م

(2)noldi،Mary Jo. (1995) playing with time : art performance in central Mali . Indian university PP . 185 – 18

الأساسية التي تميز الجنس البشري عن غيره من الكائنات ، وأكدت الدراسات أنه لا يوجد شعب واحد من الشعوب المعروفة لا يتوفر لديه نسق متكامل وإن يكن بسيطا من الأفكار والمعتقدات والممارسات التي تعكس كثيرا من الملامح المميزة لمفهوم الدين .

وهناك عناصر أساسية مشتركة بين كل الديانات المعروفة سواء كانت ديانات بدائية أو ديانات تقليدية ارتبطت بالحضارات والثقافات والمجتمعات القديمة العريقة أو الأديان السماوية، هذه العناصر هي :

١- الإيمان بوجود قوى غيبية إعجازية عليا تسيطر على مقدرات الإنسان والكون .

٢- الإحساس بمزيج من مشاعر الرهبة والخوف والتمجيد والإجلال إزاء تلك القوى الخفية الإعجازية المسيطرة

٣- جود نسق من الأفعال والممارسات التي تعبر عن هذه المشاعر والأحاسيس والتي تكون موجهة بالضرورة نحو تلك القوى الخفية الإعجازية[١] .

من أهم المجالات الاجتماعية التي يرتبط بها الدين بالمعتقدات التقليدية هو مجال التنشئة الاجتماعية ، وهي العملية التي تتم أساسا مع الأطفال وتتوجه في المقام الأول إليهم ، فالطفل يولد وليس لديه أية عادات اجتماعية ولا ارتباط بمجتمع معين ، لذلك تأتي عملية التنشئة الاجتماعية لتضع له المعايير التي يعرف بها مسلمات مجتمعه والقواعد السائدة وما يعتبر عدلا وحقا واجبا وممنوعاً وسلوكا مباحا أو سلوكا محظورا وقوة محمودة في الخلق أو ضعفا مذموما فيه .

تعد مرحلة التنشئة أساس الارتباط العاطفي بين الشخص وبين مجتمعه ، ويعد في الوقت نفسه مصدرا أساسيا من مصادر استقرار النظام السياسي والاجتماعي لما يترتب على التنشئة المخطط لها من ثبات القيم التي نظمتها وتشجع عليها أو توجه إليها الفرد نفسه وصعوبة اقتلاعها أو تقييدها[٢] .

ومن خلال مجتمع الدراسة مجتمع البامبارا نستطيع أن نلقي الضوء على أثر

(١)أحمد أبو زيد – المجتمعات الصحراوية ط٢ – من منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية – القاهرة . ١٩٩٣ صـ٩٩ .

(2)http://www.ensan.org.sa/ub/showthread.php? 24-12-2008

المعتقدات التقليدية في التنشئة الاجتماعية قبل تحولهم إلى الإسلام كذلك لنتعرف على بعض من هذه المعتقدات التي مازالت موجودة برغم دخول الإسلام .

يؤكد مجتمع البامبارا على أهمية فترة الطفولة المبكرة في حياة كل شخص ، فهو يراها طوراً مهماً من أطوار الحياة خلال السنوات الأولى من عمر الطفل ، يعمل كل من الرجال والنساء سويا على تأهيل الطفل اجتماعيا طبقا للقوانين العرفية للبلاد ويقع العبء الأكبر على النساء (الأم) .

ويحتم المجتمع على الأم برغم عدم تعليمها واجبات غير عادية ومسئولية كبيرة لإنشاء وتربية الطفل حيث لا تولي المجتمعات الإفريقية الحديثة والقديمة تعليم الإناث في سن مبكر أي اهتمام، والسبب الرئيسي في ذلك هو الدور الكبير الذي تلعبه الإناث بعد الزواج في تربية الأولاد وتحمل مسئولية الأسرة بما فيهم الزوج . وهي مسؤولية تنقلها الأم للابنة من خلال عملية التنشئة الاجتماعية .

دورة الحياة بالنسبة للفرد :

تتشابه الممارسات والمعتقدات التقليدية في تنشئة الأطفال أو التنشئة الاجتماعية في مجتمع الدراسة البمبارا و كثير من المجتمعات الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء وهى بعض مجتمعات ناميبيا وزامبيا ومالاوي ونيجيريا[1] .

ينظر للأطفال في جميع الثقافات على أنها ذات قيمة عالية ، ففي مالي ينظر للطفل على أنه هبة سماوية واجتماعية ومادية كما تنظر كثير من المجتمعات التقليدية إلى الطفل على أنه جزء من الكون قبل أن يولد والبعض الآخر ينظر إلى الطفل على أنه هدية من عند الله وهو التاريخ الاجتماعي وحيازة المجتمع .

في نيجيريا يعد الأطفال سبباً رئيسياً وحافزاً على الزواج وإنجاب الأطفال ، وفي زامبيا يكون للطفل أهمية كبرى من قبل الآباء والأمهات ، فهو يعتبر نوعاً من الاستثمار[2] .

(1)The constrative Group On Early Childhood Care And Development(1999) Childrearing Practices In Sub – Saharan » Africa : Introducation to the studies – Notebook No. 15»

(2)Judith L. Evans (1994) childrearing practices in sub – saharan African introduction to the studies N. 15

أما في البمبارا فالأطفال هي السبب الرئيسي للزواج ، حيث يسعى الشباب والبنات إلى الزواج لإنجاب الأطفال، والسبب الرئيسى لإنجاب الأطفال هو مساعدة الأبناء لآبائهم ، حيث يعلم الأب لابنه كافة المهارات الخاصة في الزراعة أو الصيد أو الحدادة والرعى ، أما الإناث فتتعلم من الأم جميع الأعمال المنزلية ومراعاة الإخوة الصغار.

وتتمركز معظم الأهداف المتعلقة بالطفل من جانب الآباء والأمهات حول تنمية المهارات الاجتماعية المناسبة والقيم الإنسانية ، ومن هذه المهارات الاجتماعية احترام كبار السن ، التعاون والاجتهاد والمشاركة في العمل وفي المنزل ، المنزل للإناث والحقل للذكور ، ومن المهم في التعليم الطاعة ، وينبغى على الطفل التمسك بتتبع التقاليد الثقافية علاوة على ذلك تعد الشجاعة والمثابرة والكرم والاعتماد على الذات والعمل في المنزل والحقل من الصفات المرغوبة في المجتمع المالي بصفة عامة.

ويؤثر تعدد الزوجات في هذه المجتمعات على عدد الأطفال الذين يولدون ، ومن أهم علامات نجاح الزواج الأطفال وبالتالي فإن هناك غيرة بين النساء في إنجاب الأطفال ، ومن ثم فأنهم يرجعون وفاة الرضيع في الغالب إلى السحر ويتهم فيها الزوجات الأخريات بسبب الغيرة بين الزوجات وبعضهن.

وتولي كل الثقافات أهمية كبيرة لإنجاب الأطفال ، وهناك العديد من المعتقدات والطقوس التي تدعم الولادة والتربية وصحة الطفل في أوقات مختلفة في حياة الطفل .

تربية الأطفال والممارسات والمعتقدات المتصلة بالحمل :

هناك بعض الممارسات التي تقوم بها المرأة قبل الحمل في حالة إذا تأخر الحمل في مجتمع البمبارا والتي تختلف من شخص إلى آخر ، منهم من يذهب إلى المعالجين الشعبيين فيعطي للمرأة أعشاباً أو أوراق شجر مجردة تشربها لكي تعجل بالحمل ، ومن الوثنيون من يذهب إلى المقابر والأماكن المقدسة أو إلى شجرة مقدسة وينذر لها نذراً أن حدث الحمل ، ومن النذور أن يتوعد الشخص أنه إذا رزق حملاً ، فسوف يطلق على المولود اسم الإله أو اسم المكان ، لكن الأغلبية العظمى من البمبارا من المسلمين يلجئون إلى الطب الشعبي والمشايخ والأعمال أو فعل أي شئ بعيد عن مخالفة الشريعة فمثلا الطب الشعبي والنباتات ورجال الدين والأعمال وفك السحر وفك العمل

والحماية من الحسد والعين الشريرة هذه كلها ليست مخالفة للشرع من وجهة نظرهم . وهناك القليل من القيم العملية البيولوجية والمعرفة العلمية لإنجاب الأطفال فإذا أنجب طفل ذكر وكان في حالة جيدة فهذا ينسب إلى الأب ، أما إذا ولد الطفل وكانت أنثى في حالة صحية سيئة فإن هذا ينسب إلى المرأة . فالمرأة والخطأ في هذه المجتمعات على صلة وثيقة ودائما يربط بين المرأة وبين أي خطأ أو مرض ، ذلك لأن مجتمع البمبارا يؤكد على قيمة الرجل وقوته بالمقارنة بالمرأة .

ومن الممارسات التقليدية المباعدة بين الطفل والذي يليه (تنظيم النسل) و يرجع ذلك إلى الرعاية بالرضيع واعتقاد الأمهات التي ترضع رضاعة طبيعية أنه لا ينبغي أن يحدث حمل أثناء الرضاعة اعتقادا منهن بأن حليب المرأة المرضع شيء خطير وسيئ في حالة الحمل وأثناء الرضاعة ويصل سن الرضاعة إلى ٣ سنوات ولا يحدث حمل أثناء هذه الفترة ، وإذا حدث تقوم المرأة بالإجهاض اعتقادا منهن أنها بذلك تستطيع تكملة رضاعة الطفل الرضيع ، لذلك نجد أنه في كثير من المجتمعات ترفض السيدات الاتصال الجنسي أثناء الرضاعة ومجتمعات أخرى تمنع ذلك مدة شهور الحمل اعتقادا منهن أن الاتصال الزوجي أثناء الحمل والرضاعة يصيب الطفل بأمراض خطيرة ، وهذا يعد من أسباب تعدد الزوجات فليس هناك ضغط على المرأة في علاقتها مع زوجها حتى يبلغ الطفل سن الفطام[1] .

وهناك بعض الممارسات في غذاء المرأة الحامل عند البمبارا ، حيث ينصحون بأكل الطماطم بمجرد أن تتزوج الفتاة اعتقادا منهم أن الطماطم تعجل وتساعد في عملية الحمل وعند الاتصال بالرجل يؤدي ذلك إلى الحمل ، كما يحرم علي المرأة أكل التوتو وهو حيوان سريع خوفا على الطفل أن يصبح سارقاً ، لأن هذا الحيوان من الحيوانات التي تسرق طعامها .

وفي نيجيريا يحرمون على الحامل أكل اللحوم اعتقادا أنها تضر بالجنين ، أما في ناميبيا فأن الحامل لا تأكل البرتقال وإذا أكلت البيض يولد المولود بدون شعر ، وإذا أكلت السمك فإن عين الطفل ستكون مثل السمكة ، وإذا أكلت الدجاج فإنه سوف تكون له

(1)Judith L . Evans (1994) childrearing practices in sub – saharan African introduction to the studies N . 15 N. 15 . – op_cit

بعض الصفات السيئة مثل الميل إلى السرقة ، هذه المحرمات تعرفها نسبة كبيرة جدا من المجتمعات التقليدية في جنوب الصحراء[1].

وهناك بعض الاعتقادات التي تتعلق بالمرأة الحامل في بعض المجتمعات الإفريقية ، منها عدم الخروج في المساء خوفا من الوقوع تحت تأثير العين الشريرة ، وعدم الكشف أو التوقع عن موعد الولادة لأن ذلك يعرض الطفل للخطر ، أما في مالي فأنه لا يوجد أساسا أي تغير في نشاط المرأة الحامل ، حيث إنها من بداية الحمل إلى الولادة تساعد في الزراعة وتساعد الرجل وتقوم بمراعاة شئون المنزل ومراعاة الصغار الذين يوجدون في المنزل ومراعاة شئون الأسرة وعمل البستنة والزراعة فيها ، فلا توجد أي مساعدة من أحد ، إلا إذا كان هناك مساعدة من بناتها إذا كان لديها بنات فهم يقومون برعاية الصغار والعمل معها في المنزل .

الولادة والتسمية :

هناك مجموعة من الممارسات والمعتقدات المحيطة بالولادة ، ولكل مجتمع ممارساته التي يحتفظ بها أفراد المجتمع أنفسهم ، والمسئولية الأولى في الولادة تقع على عاتق القابلة التقليدية ، فهي تقوم بدور حاسم في ضمان بقاء الطفل والأم في صحة جيدة ، ويشارك في عملية الولادة سيدات من الأسرة ومن أهل الأم الحامل

وبعد الولادة تمكث المرأة أربعين يوما في المنزل في راحة لا تمارس فيها أي نشاط من الذي كانت تمارسه أثناء شهور الحمل أو أثناء يومها العادي قبل الحمل والولادة ، فلا تمارس إلا الأعمال البسيطة جدا ويتركز اهتمامها الأساسي بإرضاع الرضيع رضاعة طبيعية .

هناك ثلاثة أنواع من الولادة التي يمكن أن تحدث وهي :

الأولي : وهي الإجهاض أو «Ji – bon» و يعتبر سوء حظ أو نحس تتعرض له المرأة.

الثانية : وهي عبارة عن الميلاد أو الولادة التي تحدث بشكل كامل وتسمى

---

(١) Ibid N.15

banagin وهي تعتبر حدث سعيد ليس للآباء فقط ولكن للقرية ككل .

أما الثالثة والأخيرة : فهي الولادة التي تحدث بعد تسعة أشهر وسبعة أيام و تسمى nyanguan أو menkono و ينظر إلى المولود على أنه فوق العادة ، حيث أن يجعلونه بمثابة القديس أو الكاهن، لأنه قد أتى إلى العالم ولديه طاقة هائلة [1].

أما عن التسمية في جميع الثقافات فإن هناك احتفالاً لتسمية الطفل ، فاختيار اسم الطفل له أهمية كبيرة من حيث النسب ومن حيث أن الاسم هو بمثابة وصف للطفل أي يحمل إحدى صفاته .

أما في البمبارا فإنهم لا يطلقون الاسم على الرضيع إلا في اليوم السابع للولادة وبعد فحص الطفل والاسم الأساسي للطفل هو اسم جده ثم يضاف إليه أسماء وألقاب أخرى والمسئول عن هذه التسمية هو كبير العائلة . اما التوأمان ينظر إليها علي أنها بركة وخير من الإله .

وصف لاحتفال بتسمية المولود :

يقوم البمبارا في هذه المناسبة بعمل احتفال كبير ويأتي أهل القرية أو القبيلة أو الحي إلى منزل أم المولود من الصباح الباكر ويبدأ الاحتفال في أول النهار باختيار اسم المولود ثم تقوم النساء بعمل وليمة كبيرة تكفي جميع الحاضرين ، وتشترك جميع النساء الموجودات في الحفل بعمل الوليمة ويبدأ الاحتفال بعد تناول الغذاء في النصف الثاني من اليوم ، وتقدم النساء الهدايا لأم المولود وهي في الغالب هدايا تم صنعها بواسطة النساء أنفسهم ، وتقدم القهوة والحلوى ، وبعض العائلات تأتي (بالجيلى) وهو المداح ومعه آلات موسيقية يطلق عليها Balanel وهي مصنوعة من شجرة مخصوصة اسمها Gelen ويبدأ في الغناء والمدح ، ومن الممكن إعطاء هذا المداح نقوداً ويقوم بمدح الذي يعطيه النقود وعائلته (هذا المداح على دراية كاملة بالعائلات ونسل كل شخص من الحاضرين) .

وفي نهاية اليوم ينتهي الحفل على ذلك ، وتنزل الأم مع رضيعها لتستريح ، ولا تزاول

(1) http://pender.ee.upenn.edu/rabii.toes/Ba Aspects ch4 . 9-8-2008 - Op-cit

الأم نشاطها الأسرى المتعارف عليه إلا بعد ٤٠ يوما ويبتعد عنها زوجها طوال فترة الرضاعة كما سبق وهي في الغالب لا تقل عن عامين ، وفي بعض الأسر تكون أكثر من ذلك حتى تصل إلى ثلاثة أعوام .

وفي المناطق الريفية تستخدم الأدوية التقليدية والوصفات الشعبية والأعمال لطرد الأرواح الشريرة ، ويتم التشاور بين الناس بعضهم البعض في جميع مناحي الحياة ، ونادرا ما يستخدم العلاج الغربي أو التوجه إلى العيادات ، وفي هذه المناطق برغم علم الأم بأهمية التحصينات اللازمة للطفل في هذه المرحلة وهذه التطعيمات تؤخذ في الوحدات المحلية في كل قرية لها وحدة خاصة بذلك إلا أن الأم لا تذهب إليها بل تنتظر إلى أن تذهب إليها ممرضة من الوحدة الصحية تطرق عليها الباب لكي تطعم طفلها ، وإذا لم تذهب الممرضة أو عاملة الوحدة فأنه لا يتم تطعيم الطفل . كما أن الحالة الاقتصادية المتدنية والفقر يؤدي بهؤلاء إلى اللجوء للعلاج الشعبي لأنه مجاني أو بمقابل عيني بسيط .

أما في المناطق الحضرية فإن التوجه إلى العيادات والمراكز المحلية للاستشفاء وأخذ العلاج الغربي يتوقف على مدى السهولة في الحصول عليه أي مدى قرب المركز أو الوحدة العلاجية والسهولة المادية في الحصول على العلاج وإذا كانت هناك صعوبة في أيهما فإنه يلجأ إلى الطب الشعبي وفي الغالب الجميع يبدؤون بالطب الشعبي والوصفات ، ولكن عندما يفشل الأمر يذهبون إلى الوحدة .

وفي المناطق الحضرية يهتم معظم البمبارا بالتحصينات الخاصة للأطفال وتقل النسبة في المناطق الريفية

والتغذية: سمة أساسية لنمو الطفل ، بمجرد إتمام عملية الولادة تتولى الأم الرضاعة الطبيعية بشكل سليم في العامين الأول والثاني للطفل ، وهذا ليس في بمبارا فقط وإنما في جميع الثقافات في إفريقيا عامة ، وطريقة حمل الطفل على ظهر الأم أيضا معروفة في بامبارا مثل معظم المجتمعات الإفريقية ، تحرص الأم على الرضاعة الطبيعية للطفل وأيضا المجتمع كله حريص على ذلك ، ذلك أنه في حالة فقدان الطفل لأمه لأي سبب كالوفاة أو غيره من الأسباب (وإن كان هو السبب الرئيسي) فأن الطفل يعطي لإحدى

السيدات من عائلة الأم لتقوم بدور الأم المرضع البديلة . ونشير هنا إلى أن الوفاة هي السبب الوحيد لفصل الأم عن طفلها حتى إذا حدث انفصال بين الأم والأب وكان معها رضيع فإنها تأخذه إلى أن يتم سنوات الرضاعة كاملة ، ثم يأخذه الأب بعد ذلك ليقوم بتربيته مع باقي أفراد أسرته وحينئذ تعد عملية التنشئة الاجتماعية من المهام التي يقوم بها الرجل .

وفي خلال فترة الرضاعة الطبيعية لا يمنع الطفل الرضيع من تناول بعض الأغذية ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد الشهور الثلاثة الأولى فمثلا في اليوربا تدخل النساء بعض الحبوب ، في ناميبيا يدخل الغذاء بعد الشهر السادس ، وتكون الأم حريصة على أن يكون للطفل ثلاث وجبات يومية[1] .

وفي مالي أيضا يسمح للرضيع ببعض الأغذية خاصة بعد ظهور زجاجة الرضاعة وهي تستخدم في المدن وبعد الشهور الثلاثة الأولى يمكن للأم أن تعطي ابنها بعض الأغذية مثل بعض الحبوب والأرز وهناك أغذية كتمهيد للفطام ، تعطي للطفل ، وهي مثل أغذية الكبار ، ويوجد في الفطام أيضا بعض المحرمات من الأغذية مثل تحريم أكل البيض للأطفال في سن الفطام وكذلك الأطعمة المحلاة (المسكرة) واللحوم أيضا .

أما عن طريقة الفطام فهي الطريقة المتبعة في أكثر الثقافات ، وهي أكثر الطرق شيوعا، ألا وهي إنهاء الرضاعة الطبيعية فجأة وإبعاد الطفل من الأم حيث يرسل الطفل في مالي بعيدا عن أمه ليلة وضحاها ، فيكون رد فعل الأطفال للفطام المفاجئ هو البكاء بكثرة ، أما عن رد فعل الأمهات فأنه لا يوجد رد فعل منهن، ثم أن بعض الأطفال يرفضون تناول الأغذية البديلة و يستمر هذا الوضع إلى أن يرضخ الوليد ويمتثل الطفل للأمر الواقع .

تنشئة الأطفال من سن ٣ – ٦ سنوات :

تركز التنشئة الاجتماعية في مالي عامة على الطرق والممارسات التقليدية التي تؤثر على النمو المعرفي للطفل وهذا يتضح من خلال الألعاب التقليدية والأغاني والقصص ،

(1)The constrative Group on Early Childhood cave and Development (1991) N. 15

خاصة وأن كثيراً من الألعاب التقليدية تعزز النمو المعرفي والحفظ عن ظهر قلب .

ويتم تشجيع تطور اللغة من خلال استخدام اللغة الأم مع الأطفال والتحدث إلى الأطفال من لحظة ولادتهم كما أن الطفل من ٣ – ٦ سنوات ينمو واعيا من خلال اختلاطه بالأطفال الأكبر سنا ومن خلال رواية القصص والأغاني .

أما أطفال البامانا/ بمبارا فلهم مهام محدودة وهي تجري في سن مبكرة ، هذه المهام موزعة حسب النوع فمثلاً الأولاد التي تزيد أعمارهم عن أربعة سنوات عليهم رعاية الحيوانات والدواجن وتعلم العمل اليدوي مثل عمل الحصير والنسيج وقطع التسقيف بالقش ، أما البنات فمن المهام المخولة لهم مراعاة الطيور وتقديم الحطب للمسنين والمشاركة في رعاية الإخوة الصغار والمشاركة في بعض الأعمال المنزلية اليومية مثل الغسيل وجلب المياه وجمع الحطب واستحمام الرضيع .

وفي حالة عدم قيام الأطفال بهذه المهام فأنهم يعرضون للضرب والتوبيخ والنسبة الأكبر من الآباء يستخدمون الضرب ، مع ملاحظة الفرق في المعاملة بين البنين والبنات ، فالأولاد البنين في حاجة إلى المزيد من العقاب الشديد والشدة في المعاملة أكثر من الفتيات .

وهناك عدة مراحل يمر بها الطفل إلى أن يصبح رجلا ويمر بمراحل متعددة حيث يكون لكل مرحلة مرحلة تقابلها في درجة من التكريس ، الهدف من عملية التكريس هو تزويد ذلك الشخص من الناحية النفسية قوة عقلية وأخلاقية و تحكم تصرفاته وتساعده على الإدراك الكلي والأمثل للشخص .

وطبقا للتقاليد فإن حياة ذلك الرجل العادي تتكون من مرحلتين كبيرتين : إحداهما تصاعدية حتى يصل إلى عمر ثلاثة وستين عاما ، أما الأخرى فهي تنازلية حتى عمر مائة وستة وعشرين عاما ، حيث أن كل مرحلة من تلك المراحل تتكون من ثلاثة مقاطع كبيرة كل منها واحد وعشرون عاما، تمثل ثلاث فترات كل منها سبعة أعوام، حيث أن كل جزء من أجزاء الواحد وعشرين تمثل مرحلة من التكريس ، و كل فترة من فترات السبع سنوات تمثل مدخلاً إلى تطور شخصية الفرد .

إن مرحلة الواحد وعشرين تمثل مرحلة هامة جدا ومدخلاً هاما جدا حيث إنه هو

عمر الختان الشعائرى والتكريس إلى احتفالات الإله وخلال الواحد والعشرين عاما الثانية من العمر يعمل الرجل علي تنمية وإنضاج كل ما تعلمه خلال الفترات السابقة من عمره ، وعندما يصل إلى عمر الثالثة والأربعين فإنه يفترض أن يكون قد وصل إلى النضوج والبلوغ الكامل ، وبما أنه في خلال تلك المرحلة يكون له الحق في التحدث فإنه يبدأ في التحدث إلى الآخرين ويعلمهم كل ما تعلم في خلال حياته، ويقوم بنقل كل خبراته إليهم ولا يتم منعه من فعل ذلك. كما أن شخصية الإنسان هذه لم يتم النظر إليها على أنها وحدة واحدة إلا في جسده ولكنه مخلوق معقد يمثله بالعديد من المخلوقات في تحرك مستمر .

الشعائر التقليدية عند البامبارا :

اعتاد الإنسان في البمبارا أن يهتم ويراعي كل حركاته وسكناته وكلماته طبقا لما يحيط به من قوى مختلفة تسكن وتحرك كل الأشياء ، فهو يحترم جميع القوانين التي تحرم وتحكم علاقته بكل ما يحيط به من قوى ، فهو لا يقطع شجرة قبل أن يسأل القوى التي تسكن بالأوراق أن تترك المكان ، ولن يقضي حاجته قبل أن يستأذن السكان غير المرئيين (الجان) بالمكان أن يسمحوا له بذلك فيتركوا تلك البقعة ، فحياته بأكملها تسير طبقا لعدة قوانين وعدة طقوس قد توارثها عن أسلافه والتي كانت مستوحاة من أحد الآلهة في الزمان الماضي . فالحياة الدينية والزواج و العائلة وحتى الطعام ، كل شئ له قانونه الخاص فلم يترك شيئاً للمصادفة[1] .

الـــزواج :

وظيفة الزواج في المقام الأول هي إرضاء آلهة العشيرة تلك التي قد فرضتها التقاليد ، وقد تختلف العادات من مجموعة إلى أخرى ولكن تبقى الحقيقة ، وهى أن ما يهم بالفعل هو السلوك وليس الجنس في هذا الموقف، لأنه عادة ما تتم العلاقة الجسدية من أجل إرضاء وإسعاد آلهة العشيرة وهذا يوضح أن أغلب الزيجات التى تحدث لا تحدث إلا لإرضاء الأهل والآلهة ، إلا أن هناك اهتماما بمدى جمال المرأة

(1)Hampata Amada Ba. Ch. 4 http://pender.ee.upenn.edu/rabii.toes/Ba Aspects ch4 . (9-8-2008

والانجذاب الطبيعي لها ، وتحرم الزوجة في بعض الفترات، مثل فترة الدورة الشهرية ، وكذلك لمدة معينة إذا كانت أرملة ، وخلال كل الفترة التي ترضع فيها صغيرها .

يتم الزواج بداية بين القبائل الكبيرة وبين الأسر الكبيرة ولذا فإن الأسر الصغيرة أو القبائل الصغيرة ليس لها حظ كبير في الزواج ، إذن لابد أن يكون الفتى أو الفتاة من أسرة كبيرة حتى يحظو بفرصة الزواج

يبدأ الأب في البحث عن فتاة تناسب ابنه المقبل على الزواج ، ويكون هذا البحث على أساس تعارف القبائل والأسر ، ويفضل اختيار زوجة من قبيلة أو أسرة سبق أن تم الزواج منها من فتاة أخرى، أي يكون بين القبائل علاقة نسب سابقة ، وإذا لم يمكن ذلك فإن اسم الأسرة أو القبيلة وتاريخها هو الذي يزكيها في اختيار زوجة منهم . وتكون الزوجة الأولى للابن من اختيار الأب فالشاب لا يختار زوجته ، لأن هذا شاذ على العادات ، أما الزوجة الثانية فهي من اختيار الأم أو الابن نفسه. ولا بد أن يكون للأب رأي في هذا الاختيار ، إذ أن الاختيار لا يتم على أساس الحب لأن الأب يري أن الحب لا يتفق مع الزواج ، وإذا كان هناك حب فإن الزواج يفشل . أما المرأة في البمبارا فهي لا تتدخل في أي شأن من هذه الشئون فهي لا تتدخل في اختيار الزوج بالموافقة أو الرفض ولا على زواج ابنتها ، لها رأي فقط في العمل الذي تقوم به وهي الزراعة ومساعدة الرجل ومراعاة الصغير أثناء الرضاعة في وقت الاحتياج إليها ، بعد اختيار الفتاة يرسل الأب أحد الأشخاص الذين لهم علاقة بكبير عائلة الفتاة ومعه عشرة من (الكولا) [1].

يذهب بها وهو على علم مسبق بأن هذه الهدية سوف ترفض ، وترفض فعلا الهدية لصغر حجمها ، ثم يعود بعد أربعة أيام ومعه مضاعفات هذه الهدية ٢٠ / ٤٠ من الكولا فقط ، في هذه الحالة تقبل الهدية مع وعد في التفكير في الأمر ، ثم ترسل الهدايا والملح إلى منزل العروس ويتم توزيع هذه الكولا على الرجال من أهل العروس والهدايا للعروس والملح للنساء وللديمبا (كفيلة العروس) ، كفيلة العروس هذه يتم تحديدها

(١)الكولا نبات يطلق عليه بالبامبارا الورو هو يستخدم في العرس والهدايا لعظيم ، أساس هذا النبات لا يزرع في مالي وإنما يزرع في كوتي فوار وقبل استخدام هذا النبات كان يستخدم الملح وهذا النبات غالي الثمن وتصل ثمن سلة صغيرة الحجم من هذا النبات بما يعادل ٢٠٠ دولار .

من قبل الأهل وهي التي تتولى أمر العروس من تدبير احتياجاتها وترتيب أمور الزواج إلى أن تذهب إلى منزل الزوج

ثم بعد ذلك يتم تحديد ميعاد الزواج ويكون الزواج على مرحلتين مرحلة الزواج الإسلامي ومرحلة الزواج التقليدي ، ويتم تحديد الميعاد لمرحلتي الزواج في نفس يوم الاتفاق ، وفي بعض الأحيان يكون ميعاد المرحلتين في نفس اليوم ، الزواج الإسلامي في الصباح والتقليدي بعده أو يكون الزواج الإسلامي وبعد شهر الزواج التقليدي بعد ذهاب العروسة إلى منزل زوجها ، المهم لابد من المرحلتين للزواج ، الفتاة هنا ووالدتها لا يعرفون العريس أي أن الفتاة لا تعرف من تتزوج إلا يوم الزواج .

يوم العرس في الصباح يبدأ بعقد القران على يد شيخ الجامع ، ومع اثنين من الشهود ويوثق العقد وترتدي العروس هنا فستاناً أبيض مثل الفرح الأوروبي كما في الصورة (١٨) . ثم بعد ذلك يبدأ مراسم الفرح التقليدي وهو ما يطلق عليه السنكو أو كونكو بالبمبارا وترتدى العروس الزى التقليدى للسنكو صورة (١٩) ، تبدأ سيدات الحي في الإعداد لهذا الزواج من قبلَ يومين يبدأون في إعداد الطعام والتجهيز لهذا اليوم وقد حضرت الباحثة أحد هذه الأفراح وتم تصويرها بالفيديو بالصوت والصورة .

يبدؤون في إعداد ألوان من الأطعمة الخاصة بهم ، ولابد من احتوائها على الأرز واللحم والسمك ويجهز بكميات كبيرة ، ليس لإطعام أهل العروسين فقط ، وإنما لكل من يأتي لحضور الحفل حتى لو كان الحي بأكمله أو القبيلة ، وفي أثناء إعداد الطعام يبدأ الشباب والفتيات والأطفال بالغناء والرقص ويستخدم الفيلية للموسيقى .

أثناء إعداد السيدات للطعام يقوم البعض الآخر بالاحتفال والغناء باستخدام الجدونوفو ، وهو عبارة عن إناء كبير مملوء بالماء يوضع فيه الفيلية[1] . ويضرب بالعصا بطريقة معينة لإحداث نغمة والبعض الآخر يستخدم الجيلي وهي فريق موسيقى غنائي لإحياء الحفلة من الشباب مع الموسيقى والأغاني الخاصة بهم .

ويتم الزواج غالبا في يوم الأحد من أيام الأسبوع ، ويكثر قبل شهر رمضان ، أي في

(١)الفيلية عبارة عن إناء كبير مصنوع من إحدى الثمرات يفرغ ما بداخلها ويجفف ويستخدم كإناء وقديما كان للطعام والآن يستخدم للزينة والاحتفال في الجدونو .

رجب وشعبان ولهم تفسير لذلك حيث أن العروس الجديدة تأتي إلى منزل عائلة الزوج قبل رمضان ومعها وصفات آكلات جديدة تقوم بإعدادها لأهل زوجها في رمضان ، فهي تنقل الخبرات التي تعلمتها في قبيلتها أو أسرتها إلى أسرة زوجها

وبعد تناول الطعام الذي تم إعداده يبدؤون في مراسم السنكو ، كل هذا والعروس في حجرتها لا تخرج إلا وقت السنكو وهو قبل أذان المغرب بساعة أو ساعتين .

مراسم السنكو :

تجلس العروس في حجرتها مع بعض الفتيات مرتدية الزي التقليدي وهو عبارة عن ثوب طويل من قطعتين وغطاء علي الرأس لونه غامق ، وتدخل الحجرة سيدات كبيرات في السن ويقوموا بسكب ماء ساخن على رأس العروس وعلى العروس أن تتحمل هذا الماء ، ثم بعد ذلك ماء بارد وهذا في العرف يثبت قوة تحمل العروس للأزمات التي سوف تمر على حياتها الزوجية .

ثم تأتي الجيلي وهم الفرقة أو المداحين يقومون بمدح والدة العروس وزوجة أبيها والسيدات التي في عائلتها ويقومون بمدح الديمبا (كفيلة العروس) وتقديم الشكر لها على المجهود الذي بذلته من أجل العروس .

والعمل الذي يقوم به المداحين اسمه جيليان ، بعد الانتهاء من هذا الاحتفال تذهب السيدات بالعروس مع الأغاني والرقص إلى بيت الزوج ، ويسمى احتفال السيدات الجدونوفو ، هذا الاحتفال يكون في بيت أهل العروس ويقوم به السيدات للسيدات والفتيات ، أما في منزل العريس فأن الاحتفال يكون بسيطاً .

وبعد ذلك تخرج في ساحة المنزل ومعها السيدات والفتيات وتجلس على الكورو (كرسي صغير) هي والجدة أو من ينوب عن الجدة أي سيدة كبيرة في السن ، ويبدؤون في غسل رأس الجدة ويديها وأرجلها ثم أخذ هذا الماء وتستعمله العروس في غسل رأسها وأيديها وأرجلها ويحدث هذا للمباركة ويتم وسط احتفال وأغاني وتجلس العروس والجدة في وسط دائرة أثناء الاحتفال ورأسهم مغطاة تماما بالغطاء الخاص بهم طوال فترة الاحتفال .

وبعد مرور سبعة أيام من العرس يقام ما يسمي بالميناسيري ، وهو عبارة عن جمع جهاز العروسة مع الهدايا ووضعه في حقائب كبيرة بإشراف الديمبا ، ثم تذهب إلى منزل الزوجين ، وبعض الأسر تجعل الميناسيري مع الزفاف في يوم واحد.

الطعـــام :

هناك قوانين صارمة تحكم الطعام والشراب ،ومن ينتهكها يعرض نفسه لغضب الكاهن الأسمى ، كما يعرض معدته لمرض خطير ،فالمرض دائما دلالة أن الآلهة غير راضية « من وجهة نظرهم »

ومن تلك الأحكام أن يلقي الرجل ببعض اللقم على الأربع جهات الأصلية قبل أن يضع أيا منها في فمه ، وهذا يعد من فضائل الأخلاق ، فعلى كل شخص أن يحترم طبيعة الطعام والذي يعد من هبات القوة الإلهية .

كما نرى هنا أنه ليس هناك حياة وثنية أو غير وثنية أو علمانية ، فلا نجد المقدسات من جهة والوثنية من جهة أخرى كل منها تتصل بالآخر كل ينحدر من قوى الحياة المختلفة والتي ترمز لـ « se وهي القوة المقدسة وهي إحدى صفات الإله[1] .

أما بالنسبة للأعمال :

إنه يندر وجود مهنة بشرية لا تتسم بالقدسية ، فالأعمال لا تتسم بكونها أعمالا اقتصادية أو اجتماعية بل هي أعمال مقدسة تعمل بها بعض الجماعات بغرض إسعاد الإله Maa Ngala،

و عملية تقديس العمل والدعاء له قبل أن يبدأ هي إحدى الخصائص التي يتميز بها أي نشاط هناك ، فالفلاح لن يسمح لنفسه أن ينهمك في الفلاحة إلا بعد الاستئذان ببعض الكلمات المناسبة ، ولن يزرع بذرته قبل أن يباركها ويستودعها مصدر القوة الإلهية والذي يسهر علي حماية كل الأشياء بكل الأماكن ، كذلك فالراعي لن يتحرك بقطيعه قبل أن يسأل مصدر القوة الإلهية أن « يفتح فمه الطيب ويغلق الخبيث »[2] .

(1)http://en.wikipedia.org/wiki/Bambara-people 12 - 1 - 2009 .

(2)op-cit http://pender.ee.upenn.edu/rabii.toes/Ba Aspects ch4 . 9-8-2008

وتتساوى مكانة الأب والأم عند البمبارا بمكانة السماء والأرض ، وكون السماء عالية وبعيدة يجعلها من التقديس بحيث لا يعتقد أحد أنها قد نشأت على أساس الحب بل على أساس القوة فالرعد والأعاصير وبعد السماء هي من دلائل قدرة وقوة Masa Dembali الخالق الأعظم ، وعليه فإن هذه القوة تتجسد في صورة الإله على الأرض ، ولكن لا يجسد قرب الله المقدس وقوته على الرحمة والحب في السماء ولكن يظهر في عمله وفي قلب وحنان الأم .

ينظر إلى الأم على أنها المغذية للطفل ولكن ليست هي فقط فليس اللبن هو الذي يتغذى عليه الطفل من أمه بل الرحمة الإلهية نفسها والحب ولهذا يحرم الطفل المفطوم باكرا من التغذى بالرحمة والتي يجب أن تكون البداية الجيدة لحياته[1]. وهذا من أسباب طول فترة رضاعة الأطفال ، ففي أغلب الأسر يصل سن الرضاعة إلى سن ثلاث سنوات .

ويعتبر الرحم الأمومي هو « الورشة » التي ينمي فيها الخالق الأعظم تلك الحياة ، فهي مكان العمل الإلهي ، ولهذا خصت التقاليد الزوجة الأم بمكانة عالية تمثل نصف إله ، بينما الزوجة (كامرأة) هي شريك للمتعة الجسدية ، فلعنة الأم كمباركتها تصعد عالية إلى السماء ولا ترد أبدا فتقول المثل « أن كل ما يملكه الفرد يدين به مرة واحدة فقط لأبية ومرتين لأمه ».

والأم عند البمبارا تعني الأرض و الأرض عندهم قوة أنثوية وأمومية تستقبل كل القوى التي تأتي من السماء على بعض الوسائل كالماء (Ji) والضوء (yeelen) وكذلك الظلام (dibi) ، وباعتبارها أما لكل الوجود فتصبح السماء زوجا لها والقمر هو نجمها والشمس قطبها ، فهي الحصن والدعم والصدر الحنون للكون فعندما تغادر أقدامنا الأرض نفقد الشعور بالأمان .

لقد استقرت روح الإله ليمنايا Lemnaya بها فهي روح الثقة التي تشعر الإنسان بالسلام والأمان مثل شعور الطفل بالثقة في خضن أمه . والمثل البمباري يقول :

«Nil yu me gonngon duu ra intron fla dobe dugu man»

ومعناه : لكي تستطيع أن تتعايش مع الآخرين وتدرك وجودك بينهم يجب أن تتواجد

(1)http://pender.ee.upenn.edu/rabii/toes A spects ch.4,12-1-2009

فوق الأرض ، لذلك فإن المجيء إلى الأرض (العالم) مهم جدا فيجب التحضير له باهتمام كبير مثل ما يحدث عند ولادة طفل .

وأن حرفتي الزراعة وجمع المحاصيل تمثل مهنة عظيمة يعمل بها الأشخاص الأكثر روحانية من الآخرين فه تستند أساسا على الأرض وكون (الأرض) أما للكون ولأننا منها خلقنا وإليها نعود لا نتمي لأحد غيرها حتى الملك وإن وجد فأنه لا يستطيع أن يصبح سيد الأرض ومالكها فالأرض لا يمكن نقلها لتصبح ملكا لرجل أو رهنا له[1]. والفلاح لا يزرع أو يحصد قبل أن يسأل الأرض أن تتقبل ما يزرعه بها وأن تحمي البذرة أثناء نموها ، فيسألها العفو عنه قبل أن يحطم أرضها بفأسه لتتحمل تلك الإصابة بدون غضب .

عادة الختان : صور رقم (٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨)

ختان البنات عادة قديمة قدم الحضارة الإنسانية خاصة في إفريقيا ، فالحضارة القديمة وبلاد النوبة وجنوب الصحراء والدول الموجودة شمالا والسافانا كل هذه المناطق كانت تمارس ختان الإناث ولا تزال . تنتشر هذه العادة بشكل واسع في غرب أفريقيا برغم القوانين والحملات التي تطالب بحظرها حيث تشير إحصاءات رسمية أن ٩٢٪ من النساء خضعن للختان [2].

فهم ينظرون للختان على أنة جزء من الثقافة والعادات ، وهو من أهم دعائم المجتمع ، لأنة يساعد النساء على الحفاظ على طهارتهن ونظافتهن . بالإضافة إلى أن دولة مثل مالي تواجه مشاكل من نوع آخر مثل تعدد الزوجات وهو أمر يجيزه القانون وتؤيده العادات بشدة ،وزواج الفتيات مبكراً في سن الثالثة عشرة وتزويج الأرملة إلى شقيق زوجها المتوفى [3].

و جمهورية مالي دولة كبيرة مترامية الأطراف يسكنها قبائل كثيرة ، لكل قبيلة عاداتها وتقاليدها وماضيها ، والاعتقاد السائد في مالي أن الإسلام هو الذي فرض ختان الإناث ، والحقيقة أن الإسلام برئ من هذا الذنب ، ونحن هنا لسنا بصدد صحة هذا أو نفيه ،

(1)http://pender.ee.upenn.edu/rabii/toes A spects ch.4 Ibid(12-1-2009

(2)http://www.alarabiya.net/save_print‹php?=1&cont_id=17893(7-2009)

(٣)مداني.

وإنما ما يعنينا هنا أن ظاهرة الختان مازالت موجودة ، ففي قبائل سيقو وهي المحافظة الثالثة في مالي يختنون البنت بعد خطبتها « وهذا ما كان يتبع قبل الإسلام ومازال إلى الآن » هذه عاداتهم القديمة لأن الخطيب هو المسئول عن تطهير زوجته .

أما في قرية « تفني » فهم لا ينتظرون الخطيب ، وإنما تختن الفتاة في أي سن من الميلاد إلى ما قبل سن الرشد[1] وإن قبيلة بمبارا وما جاورها من القبائل الأخرى كلها تمارس الختان بلا استثناء، وقد ذكرت الباحثة في بداية هذا الفصل المعتقدات التقليدية للختان بالنسبة للجنسين وحفلة الختان للجنسين أيضا كما كانت تتبع تقليديا قبل الإسلام ، هذا أن دل على شيء يدل على أن الإسلام لم يفرض ختان الإناث على المسلمين، فهي عادة قديمة مشهورة عند كثير من القبائل الإفريقية ، وهم متمسكون بها أكثر من تمسكهم بإسلامهم .

وتتصدر مالي الآن الدول المطالبة بوضع حد لهذه العادة وهي لذلك تستعين بمغنيات تقليديات في التوعية للحد والإقلاع عن هذه العادة لان للمغنيات إمكانات للتأثير في مجتمع ذو ثقافة تقليدية لأنه في مجتمع تقليدي مثل مالي يكون نفوذ هؤلاء المغنيات أكبر بكثير من نفوذ رجال الدين .

إلا أن التخلص من هذه العادة قد يستغرق عقودا وليس بضع سنوات رغم الضغوط التي يمارسها رجال الدين ووجهاء المجتمع وانضمت العام الماضي تسع دول من غرب إفريقيا إلى مالي في الحملة التي تقودها لمكافحة ختان النساء [2] .

أما بالنسبة لزي المرأة فأن النساء مازالت تتمسك بطريقة اللبس التي كانت تتبع قبل الإسلام فعادة لبس النساء عندهم هو ستر النصف الأسفل من الجسد ما بين السرة والركبتين وستر النصف الأعلى بقليل من القماش ولهم تفسيرين لطريقة الزي هذه :

التفسير الأول : أن النساء في مالي يعملن في أربع جهات : الزراعة ، الصيد ، تربية الماشية ، الصناعات اليدوية ، هذه الأعمال تعتمد في مالي على وسائل شبه بدائية

(1)Barbara Callaway & Lucy Creevey (1994) » The Heritage of Islam : women ، Religion ، and Politics in West Africa ، PP-65 -67

(2) http:// alarabiya .net -op - cit

وتقليدية وبسيطة للغاية وتحتاج إلى مجهود جبار تحت الشمس المحرقة كمن يزرع من الفجر إلى غسق الليل بالإضافة إلى قساوة البيئة هذا دفع النساء والأمهات إلى ارتداء ما يسهل عليهم عملهن في الحقول والمزارع وفي النهر .

التفسير الثاني : وهو الخوف من الحسد ذلك لأن التزين في غير المناسبات والأعياد والوفيات يعتبر رياء وفخر ، وهذا التصور يدفع الناس في الأرياف والقرى إلى التظاهر بالفقر والبؤس فرارا من حسد الحاسدين، يقول المثل البمباري « ترك البلاد خير من ترك العادة » .

أما وقت الصلاة فإن المرأة تتطهر وتلبس ملابس الصلاة المغطاة من الرأس إلى الكعبين وبعد الانتهاء من الصلاة تخلع ذلك اللباس الخاص بالصلاة وترجع إلى العمل نصف عارية كما كانت ، وهذا شائع في القرى .

هذا يوضح لنا مدى تمسك هذا المجتمع بالعادات والتقاليد وخاصة في القرى ، أما في المدن فإن هناك نسبة كثيرة من السيدات المحجبات في بماكو العاصمة وهنا في القاهرة التقت الباحثة بإحدى الطالبات الجامعيات وإحدى زوجات العاملين في سفارة مالي وكانت ملابسهم عادية ، منهن محجبات وأخريات محتشمات .

أما بالنسبة للقرى فهذا يرجع أساسا لعدم تعليم البنت فهذه المجتمعات تهتم أكثر بتعليم الذكور ، أن ما يعانيه الإسلام والمسلمون في مالي يرجع إلى أن الغالبية من الأولياء والمربين يعطون أهمية قصوى لتربية الذكور أكثر مما يعطون لتربية البنات اعتقاداً منهم بأن الذكور هم رجال الغد فإذا أصلحوا صلح المجتمع والإسلام ولكنهم نسوا أن رجال الغد هم أولاد وبنات اليوم[1] .

ثالثا : دور المرأة في الديانة الإفريقية التقليدية

The role of women in African traditional religion

من المقولات المشهورة عن المرأة في غانا قولهم « أن المرأة هى الزهرة فى الحديقة و زوجها هو السياج الذي حولها ويحيط بها » .

(1)Barbara Callaway & Lucy Creevey (1994) » The Heritage of Islam : women ، Religion ، and Politics in West Africa ، P50

«A woman is a flower in a garden ، her husband is the fanco arround her»

وهذه صورة جميلة للمرأة في المجتمع الإفريقي .

أما عن دور المرأة في الديانة التقليدية الإفريقية فلا بد لنا أن نتعرف على ثلاثه مجالات أساسية وهي الأساطير والأمثال والصلوات ، ففي جانب الأساطير سنواجه شكل وصورة المرأة التي كانت عليها في بداية الوجود البشري وهي أسطورة وليس تاريخاً، لأن الأسطورة أوسع من التاريخ في تفسير بعض جوانب المجتمع تلك الأساطير هي لغة للتعبير عن الحقائق التي لم يوضحها التاريخ توضيحاً كاملاً .

أما الأمثال فهي تعبير عن الحكمة المكتسبة من خلال التفكير والخبرة والمعرفة العامة والملاحظة ، وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بثقافة مجتمع معين بحيث إنه لكي تستطيع فهم الأمثال وتطبيقها إلا بدراسة ذلك المجتمع ، لأنه لابد أن يكون ذلك المثل جزءاً من ثقافة المجتمع النابع منه وسوف نسرد بعض الأمثال لتعطينا صورة عن المرأة في المجتمعات الإفريقية ،

أما بالنسبة للصلاة فهي تقودنا إلى عالم الروحانيات التي يتغذى عليها الدين الإفريقي ونعرف ماذا تقول النساء في الصلاة [1].

(١) المرأة في الأساطير الإفريقية :

تمتلك معظم الشعوب والقبائل الإفريقية مجموعة من الأساطير والقصص ، نركز هنا على بعض الأساطير التي تركز علي المرأة.

تظهر بعض الأساطير المرأة بأنها الأم الأصلية للبشرية التي أنشأت جميع البشر مثال Arposso في توجو و Ibibio في النيجر ، والفكرة الأساسية عن الأمهات الأسطوريات هي أن الحياة البشرية ترتبط بشكل مباشر مع الله من خلال المرأة ، فقد خلقها الله ثم أصبحت الجهاز الذي ينتج الحياة ، وهي الشخص الذي ينقل الحياة ، ويتضح ذلك من خلال أحد الأساطير أسطورة تونس في (رواندا) وهى أن الزوج الأساسي من البشر كان يسكن الجنة ولكنهم كانوا لا ينجبون الأطفال فدعوا الله أن

(١)www women.htm.mamiwata.com14 – 12 –2008

يساعدهما في أن يكون لهما أبناء ، فقام الإله بخلط بعض الطمي مع اللعاب وكون منهما جنين ذكراً كان أو أنثى أو نموذجاً بشرياً صغيراً وطلب منهم أن يضعوه في إناء ثم كانت أمه تأتي إليه كل يوم وتصب بعض اللبن في ذلك الإناء وكان عليها أن تنتظر مدة ٩ شهور كما أمرهم الله ، وبعد التسعة أشهر يكون قد تمت تكوين الطفل الصغير وتم ولادته وتظهر هذه الأسطورة كيف أن هناك اتصالاً مباشراً بين المرأة والإله .

وتذكر بعض الأساطير أن المرأة قد خلقها الله من جسم الإنسان أي من جسم الرجل بعد أن خلق الرجل ، وقد فسر البعض هذه الأساطير أنها قيلت لكي تظهر سيطرة الرجل على المرأة .

تذكر الأساطير أيضا أن المرأة هي التي اخترعت أو اكتشفت النار وسيطرت عليها وليس الرجل ، كما أن للمرأة أيضا الفضل في اختراع واكتشاف المواد الغذائية وكيفية تحضيرها .

وهناك بعض الأساطير التي كانت تلقي اللوم على النساء فمثلا أسطورة لدى أقزام البمبوتي (Bambuti) خلاصتها أن الإله تمنح هؤلاء البشر الأولاد وأباح لهم أن يأكلوا من جميع الثمار وجميع الأشجار إلا شجرة واحدة ، وظلوا منقادين طائعين إلى أن جاءت امرأة وألحت على زوجها أن يأتي لها بثمرة من تلك الشجرة حتى استجاب لها وخرج يوما في المساء وأحضر لها من ثمرة هذه الشجرة ولكن رآه القمر وذهب ليخبر الإله، ومن هنا أنزل الإله الموت كنوع من العقاب بسبب غضبه عليهم لكن هذه الأساطير التي تلقي اللوم على المرأة وتحملها مسئولية بعض الأخطاء أساطير قليلة فهي ليست السبب ولكنها مشاركة في ذلك

يتضح لنا من ذلك أن المرأة في الأساطير كانت لها مكانة عالية وكان لها وضع خاص من قبل الإله حيث إنها شاركت الإله في خلق الخياة إلا أنه في بعض الأساطير كانت المرأة من الأسباب التي ساهمت في نزول المحن والمعاناة والموت وغيرها من الأشياء التي جاءت بطرق مختلفة على البشر[1] .

(1)www.africa warld.net/afral/art.women.ht 14 – 12 – 2008

(٢) المرأة فى الأمثال الإفريقية :

تعد الأمثال أكثر انتشارا وأكبر عددا من الأساطير ، حيث أننا نجدها بالمئات بل بالآلاف في كل قبيلة إفريقية ، بل إنهم يمثلون جزءاً من أجزاء الحياة والمعرفة ، حيث أن تلك الأمثال تتميز بأنها تعرض العديد من الأفكار والانعكاسات و الخبرات والملاحظات و المعارف حتى وجهات النظر العالمية وفي كلمات قليلة وموجزة ، وسوف نقوم هنا باستعراض القليل من تلك الأمثال ونحاول أن نصل إلى ما ترمي إليه تلك الأمثال في كلماتها البسيطة .

(أ) أن المرأة ذات قيمة عالية جدا في المجتمع وحيث إنها لا تحمل معنى الحياة فقط ، وإنما هي ممرضة تعطي الدفء وتعطي العناية ، والأمثال التالية تقوم بتوضيح تلك الصورة .

* « الزوجات والثيران ليس لديهم أصدقاء » وهو ما يشير إلى أن المرأة ذات قيمة عالية جدا ، ولا يمكن إعارتها حتى إلى أعز وأقرب أصدقاء زوجها .

« المرأة يجب أن لا تقتل » حيث أن المرأة هي أساس الحياة ، فقتل المرأة هو قتل الأطفال ، وقتل البشرية كلها .

« هل اشتريتني بعاج الفيل » وهي جملة تقولها الزوجة عندما يكون زوجها يعاملها معاملة سيئة ، وتعني بذلك أنها ليست سلعة يمكنه شراؤها حتى ولو بالعاج الخاص بالفيل .

« من الأفضل أن تتزوج ولو عجوز خيراً لك من أن تظل غير متزوج » حيث إنه يشير إلى أن هناك أشياء في حياة الإنسان لا يمكن استقامتها إلا عن طريق المرأة .

«عند الخامسة يكون الرجل ناجحاً » ، حيث يذكرون في هذا المثل بأن النجاح يتحقق في الحياة عن طريق خمسة أشياء « الزوجة والبقرة والأغنام و الماعز و والحمار » حتى إذا كان الفرد غنياً فلابد له من وجود زوجة معه [1] .

الطفلة (البنت) الصغيرة تعني الأبقار الجميلة » ، وهو يشير إلى أن قيمة البنت تظهر

(١)www.africa warld.net/afral/art.women.ht 14 – 12 – 2008

منذ صغرها وليس فقط عندما تصبح متزوجة .

(ب) أن المرأة غير المتزوجة من الناحية العملية ليس لها دور في المجتمع .

حيث أنه من وجهة النظر التقليدية الإفريقية ، فإن كل النساء لابد أن يتزوجوا .

« الفتاة القبيحة لا تصبح عجوزاً في منزلها » .

حيث يشير ذلك المثل إلى إنه رغم ذلك المظهر القبيح للفتاة ، فإنه لا يعيق زواجها في تلك المجتمعات

« المرأة التي لديها أطفال لا تجعل بيتها صحراء »

وهو ما يعكس القيمة الكبيرة لتلك المرأة التي تحمل وتلد فعن طريق الأطفال يصبح بيتها كالبستان لا كالصحراء .وهذا ما يعزز أهمية إنجاب الأطفال في المجتمع .

« أن المرأة التي توفي أطفالها أغنى من تلك المرآة العقيمة »

ويظهر هذا المثل أن هؤلاء الناس ينظرون إلى تلك المرأة التي فقدت أطفالها بشكل أفضل من العاقر ويلتمسون لها العذر ولكنهم لا يلتمسون أي أعذار لتلك المرأة التي لم تحمل بعد

(ج) أن المرأة أو الأم ربما هي العضو الأكثر أهمية في العائلة

* « الطفل الذي يرفض ثدي والدته ، لن يصبح مكتملاً أبدا »

وهو ما يدل على أهمية الأم وطعامها ، حيث إنه مهما يقم الطفل بتناول أي مصدر آخر للطعام غير ثدي والدته ، فإن ذلك لن يغنيه أبدا عن رضاعة أمه ، ولن يجعله مكتملاً.

* « أم غيرك ، مهما كانت طيبة وعطوفة معك ، لن تكون أبدا مثل والدتك »

وهو يشير إلى أهمية الأم وأنه مهما كانت هناك أي أم أخرى عطوفة وطيبة على الفرد فإنها لن تكون مثل الأم الأصلية أبدا لهذا ، الفرد وهناك أمثال أخرى تعطي نفس المعنى لهذا المثل مثل : « أن الخروف لا ينعي موت صغير الماعز » ، « لا يوجد أم أخرى »

وأيضا « لا توجد والدتين

(د) « أن النساء كائنات بشرية وبالتالي فإن فيهم بعض الضعف »

وقد ذكرت العديد من الأمثال الإفريقية تلك النقاط التي تشير لضعف هؤلاء النساء وخاصة في تلك الحالات التي تعيش فيها مجموعة زوجات لرجل واحد مع بعضهم البعض ومن تلك الأمثال :

* « أن لسان الزوجة الأخرى الدرة لاذع » ، « لسان الدرة مدبب »

وهو ما يعني أن كل واحدة من هؤلاء الزوجات يمكن أن تؤذي وتضر الأخرى عن طريق لسانها أي عن طريق الكلام .

* « تعدد الزواج يجعل الزوج بلسانين »

وهو ما يوضح أن دور ذلك الرجل ليس بالسهل ، وإنما عليه أن يقوم بإرضاء جميع الأطراف وأن يتعامل مع كل زوجة بالطريقة التي تناسبها .

(هـ) كما أن هناك بعض الأحكام التي يتم إطلاقها على المرأة في تلك المجتمعات الإفريقية أو بعض العبارات التي تطلق على النساء ، ومن المدهش أن هناك العديد من تلك الأمثال أو العبارات المتشابهة في العديد من الأماكن حول العالم .

« وتلك المرأة نار» «لا تطلب المرأة ذات الثدي الجميل ، إذا لم يكن معك نقود » .

وهو ما يعني أن المرأة الجميلة لا يمكن الحصول عليها بسهولة ، ولكنها باهظة الثمن لكي تحصل عليها وتحافظ عليها .

« النساء ، مثل المناخ ، لا يمكن التنبؤ بهم » .

« عندما تزداد ثروة النساء ، يظللن صامتين . ولكن عندما يسقطن في مشاكل ، فإن العالم كله يسمع بها »

كما أن هناك البعض من الرجال (والنساء) الذين يخافون من النساء ، حيث أنهم يعدونهن شيئاً خطيراً ومن الأمثال علي ذلك ، « معنى أن تتزوج فكأنك تضع ثعباناً في حقيبة يد شخص » .

« أن تتبع امرأة كأنك تتبع بصمات على سطح الماء » .

وكل ذلك يشير إلى أن المرأة غير موثوق بها ولا يجب تصديقها .

(و) علي الرغم من تلك العبارات المضادة للمرأة ، فإن هناك العديد من العبارات الجميلة التي تطلق علي النساء

« أن المرأة هي شجرة للموز » .

« المرأة زهرة في الحديقة ، وزوجها هو السياج الذي حولها » .

« الرجل يموت في الرياح والمرأة في المنزل » .

« المرأة ضلع الرجل » .

وكلها تعبيرات جميلة عن المرأة وتوضح أهميتها بالنسبة للرجل[1] .

(٣) المرأة والصلوات :

في الحياة التقليدية الأفريقية تلعب المرأة دوراً هاما في الأنشطة الدينية للمجتمع . حيث أن أحد تلك المجالات التي تظهر بشكل بارز هو أداء الصلوات بشكل خاص للعائلة وبشكل عام لمجتمعاتهم المحلية حيث إنه يوجد العديد من الأماكن في أفريقيا التي يوجد بها الكهنة من النساء . كما أن الممارسات الطبية التقليدية يقوم بها كل من الرجال والنساء ، بل إنها تكون بشكل أكبر في أيدي النساء كما في حالة الأطفال والنساء الأخريات الذين هم في حالة تحتاج لمعالجة طبية .

فهناك علي سبيل المثال دعاء تقوله المرأة في الصباح حيث تقول « قد ارتفع الصباح ، يالله ، خذ كل الألم ، كل السوء ، كل الحوادث ، يالله ، دعنا نعود إلى بيوتنا ووطننا سالمين وآمنين » .

كما أن تلك المرأة التي خرج زوجها بعيدا في حروب أو قتال ، تقوم بالدعاء له وتدعو الإله أن يحميه وأن يعود آمنا . حيث أنها أيضا لا تدعو له فقط ولكن أيضا لكل

(1)The Rolo of women in African Tradational Religion by goh mb.ti www.afrika warld . (Ibid)

من خرج معه .

حيث تقول في ذلك الدعاء. « دعه ينجو مع الذين معه ، دعه يقف بحزم معهم، دعه يعود سالما معهم»

كما أنهم يقومون ببعض الاحتفالات التي تعد بمثابة طقوس للمرور للفتيات اللاتي يصلن لسن البلوغ ويأتي عليهن الطمث ، وذلك لأنه ضرورة وأساس من أساسيات استمرار الحياة ومرورها من جيل إلى آخر كما تقوم المرأة عند الماساي بتقديم الدعاء من أجل إنزال المطر ، كما تقوم ببعض الطقوس والاحتفالات وتقديم الأضحيات للآله .

كما أن النساء عندما يلدن ، فإنهن يشكرن الإله ، حيث أنهن يعلمون أن تلك الحياة قد أتت من عنده ويتم الحفاظ عليها من خلاله . كما أن تلك المرأة التي لا تنجب تدعو ببعض صيغ الدعاء من أجل أن يمنحها الإله تلك الأطفال[1].

الخاتمة :

يعتقد البمبارا بوجود إله واحد الإله الأعظم ، ويطلقون عليه الفارو أو ماسا ديمبالي الذي يخلق كل شيئ وهو السبب في وجود كل شئ ، وما يلي ذلك الإله هم وسطاء (كومتيجي) فلهم إله واحد لا يستطيعون رؤيته أو التعامل معه إلا من خلال هؤلاء الوسطاء ولا يعبدون الأشجار أو الأحجار كما أنهم ليسوا وثنيين كما صورهم كثير من الباحثين الذين يطلقون عليهم إلى الآن البمبارا الوثنيين لاعتقادهم أنهم يعبدون التماثيل ، ولكن هذه التماثيل ماهي إلا وسيط بين العبد والآلهة .

مما سبق يتبين أن مجمل عقيدة قبائل البمبارا أنهم يعبدون السماء وأركان الأرض الأربعة والجن ويؤمنون بأن كل رب أسرة وكل شاب وصل سن الختان وأجريت له عملية الختان عليه أن يقوم بتقديم أضحية وعادة ماتتكون من حيوان أليف . كما انه يوجد عبادات منزلية خاصة بالاحتفاظ بالقوى الحيوية للأسرة ورفع كل خطر يصيب الجماعة . ولديهم أيضا احترام وتعظيم الأسلاف وكيف أن هؤلاء الأجداد تظهر

(1)www. Mamiwata .com / women . htm 14/12/2008

قيمتهم وقوتهم بعد الوفاة ، وأن روح الجد تسكن أحد الأطفال الذين يولدون بعد الوفاة، ويحمل هذا الطفل اسم الجد .كما أنهم يعتقدون في السحر اعتقاداً قوياً فهم يستخدمونه في كثير من جياتهم اليومية ومازال السحر مستخدماً وبقوة إلى الآن ، ومازال يباع في الأسواق أجزاء من الحيوانات والجلود والمكونات التي تستخدم في السحر ولها أسواق خاصة بها ، وليس فقط في القبائل أو القرى ولكن أيضاً في العاصمة وبجوار سوق أرتيزان وهو اكبر سوق تجاري لكل المصنوعات اليدوية .

كما أن للجمعيات السرية أهمية في المجتمع ، فمازالت تلعب دوراً سياساً واقتصادياً للقبائل بالإضافة إلى تنظيم الحياة في القرية وخاصة المراسم الزراعية المقدسة واتخاذ القرارات السياسية وتنظيم العمل . ووجود هذه الجماعات تعطي معنى التعاون والمساعدة التي يقدمونها من أجل القبيلة كلها . هذه الجمعيات مازالت موجودة وأساسية إلى الآن وهي في طقوسها ومساعدتها لاتخالف الإسلام في شئ .

أما الأقنعة (الماسكات) فلها أهميتها العظمي خاصة عند البمبارا ، فهم يقومون بصنعها ونحتها من الأخشاب ، وتستخدم في الاحتفالات كتكريم وتحفيز لأحسن زارع أو صانع ، وتستخدم قبل الحصاد في احتفالية كبيرة آملين من ذلك وفرة المحصول . كما أنهم يستخدمونها كنوع من الفنون ولكن بغرض نقل التراث والعادات والتقاليد إلى الشباب وتعليمها للأطفال ، ويتم هذا من خلال المسرح الكبير المعروف في سبجو مركز تجمع البمبارا .

كما تلعب المرأة دوراً هاما في الديانة التقليدية الإفريقية عامة والغرض من هذا العرض هو التعرف على النظرة التقليدية التي كانت للمرأة ثم بعد ذلك سنعرض للمرأة في الإسلام والمرأة عند البمبارا .